سيرة المطران عبد الله قراعلي وأبرز منجزاته[1]

(١٦٧٢ –١٧٤٢)

نشأة المطران عبدالله وحداثته

ولد عبد الله في حلب الشهباء يوم الثامن من أيلول سنة ١٦٧٢، من والدين مشهورَين بالتقوى والسيرة الصالحة. وكان اسم والده ميخايل، واسم والدته هيلانه ابنة الحاجّ يعقوب بركات. فسمّاه والده عبد الأحد باسم جد الأسرة الأكبر[2]، تيمُّنًا بأن يكون ولدهما عبدًا صالحًا للإله الأحد، وكانا على جانبٍ عظيم من الورع، وعلى شيء من السَّعة. فربّياه أحسن تربية، وأوسعا له أبواب المعارف الميسورة في ذلك العصر. وكان له أربعة إخوة ذكور ما عداه، وأختان اثنتان. ولمّا انتشأ وضعاه عند المعلّمين الثقاة ليتعلّم اللغتين العربيّة والسريانيّة. فاستدام على ذلك إلى أن بلغ الثانية عشرة من عمره. وعند ذلك ابتدأ يقرأ في كتب الآباء والزهّاد إلى أنْ بلغ الرابعة عشرة من عمره. فظهرت حينئذٍ عليه علائم الزهد والعبادة. فعيّنه أبوه ليتعلّم الإعراب كالنحو والصرف على الشيخ سليمان النحويّ الحلبيّ الشهير، ثمّ على الخوري بطرس التولاوي الماروني، ورغب أبوه أن يعلّمه أيضًا اللغة الإيطاليّة، رغبة في صناعة التجارة ومعاطاة البندر. لأنّ والده كان يلحظ في هذا الفتى عقلًا ثاقبًا، وحشمة زائدة، وله قبول عند العال والدون.

الطريقة الرهبانيّة

ولمّا بلغ عبد الله السنة السادسة عشرة من عمره، كان يتزايد فيه الشوق إلى الطريقة الرهبانيّة، وكان يفّكر سرًّا كيف يكون العمل لبلوغ قصده، لأنّ في مدينة حلب وبَرّها لم يكن أديار للرهبان، إنّما الخبر الشائع أنّه في جبل لبنان موجود رهبان وأديار باسم القدّيس انطونيوس أبي الرهبان. وعبد الأحد هذا لم يرَ سبيلًا للتوجّه إلى تلك النواحي، لأنّ المسافة بعيدة. ومع هذا لم يكن له جرأة أن يكلّم أباه وأمّه بهذا الخصوص، ولم يُظْهِر لهما رغبته، لأنّ والده ما كان يُمكن أن يُطْلِقه إلى بلاد مجهولة عندهم، وهو بهذا السنّ الصغير. فاستدام عبد الأحد في رغبته هذه. إلّا أنّه تارة كان يرتخي، وتارة يشتدّ في عزمه ويرغب.

---

[1] هذه السيرة مُستقاة باختصار، مع بعض التصرُّف والعودة أحيانًا قليلة إلى مراجع أخرى، من كتاب: فهد، الأباتي بطرس، **المطران عبدالله قراعلي مؤسّس الرهبانيّة المارونيّة الحلبيّة اللبنانيّة سنة ١٦٩٤ في وادي قاديشا المقدّس في عهد البطريرك المارونيّ العظيم إسطِفانوس الدويهي علّامة دهره**، مطابع يوبي برنتنغ برس، الغُسَّيْبَة، لبنان، ١٩٩٣، ١٨٢ صفحة.

[2] [أسرة قراعلي هي أسرة وجيهة من أقدم الأُسَر الحلبيّة، وتُكْتب وتُلفَظ على نحوَين: إمّا قرألي (بالهمز) وإمّا قراعلي (بالعين). وهي من أصل غير مسيحيّ في الأساس، وتتحدَّر من جدّها الأعلى عبد الأحد. وثمّة خلاف حول تعيين مسقط رأسه، فقال بعضٌ إنّه أعجميّ هجر وطنه خلال القرن السادس عشر، وقال آخرون إنّه نزح من لبنان خلال القرن السابع عشر. و"قراعلي" هي لفظة تركيّة معناها اليد السوداء، وقد لقَّبَه الحكّام الأتراك بهذا اللقب، تحبُّبًا، لسواد يده، فشاع وعمّ الأسرة كلّها. (يُراجَع بهذا الشأن المرجع السابق نفسه، ص ٧– ٩)].

دام هذا الفتى على هذه الحال، إلى أن بلغ من العمر ثمانية عشرة سنة. فبأحكام إلهيّة مرض مرضًة ثقيلة. وبعونه تعالى شفي منها تمامًا. وحين كان في الفراش، وليس له قوّة على الخروج، كان يقرأ كتبًا روحيّة للتسلية كما سبق القول. وانتهى إلى قراءة كتاب "بستان الرهبان"، وكتاب مار يوحنّا[كليماكوس] السُلَّميّ[1] "سُلَّم الفضائل"، وكان يتأمّل بسيرة الآباء مثل أبينا مار أنطونيوس كوكب البرّيّة، ومكاريوس، وأرسانيوس، ومَن ماثلهم. فتحرّك قلبه بحركةٍ فاقت ما قبلها من الحركات، وعزم العزم الأكيد في ترك العالم، والتجنّد إلى حمل نير المسيح.

بعد شفائه من المرض، رجع إلى الاجتماع بعُشَرائه، وهم جبرايل بن توما حوّا، ويوسف بن البتن، وجبرايل بن فرحات. وهؤلاء المذكورون جميعهم كانت مذاكراتهم على الدوام في أمور روحيّةٍ، وقراءة كتب القدّيسين، ورغبة الزهد في العالم. فالتزم أنّه أفشى بسرّه إلى جبرايل بن توما حوّا، وأخبره عن نيّته وعزمه.

فرّد له الجواب جبرايل بن توما حوّا بقوله إنّ نيّته هي كذلك أيضًا، وتعاهدا بالقول أن يكونا سويَّةً. وأمّا يوسف بن البتن فعرف بالرمز نيَّتهما، وعاهدهما على العمل مثلهما، وصار الرضى بينهما، أعني جبرايل، وعبد الأحد، بأنّ كلّ واحد منهما يستأذن والده بذلك. فجبرايل حوّا أَذِنَ له والده توما، برغبته ومطلوبه، وأشار إليه بأنّ يأخذ معه بضاعًة، ويمضي بها إلى طرابلس، لأنّها ميناء جبّة بشرّاي، الموجود فيها الكرسيّ البطريركيّ الماروني. ويومئذ كان البطريرك إسطفان الدويهي من قرية إهدن، وكان بالأصل نسيبًا لبيت حوّا. فتوجّه حوّا إلى هناك بحُجَّة التجارة، بناء على نصيحة والده، وقصده استكشاف تلك النواحي، والتأكُّد ممّا إذا كان يستطيع الثبات على عزمه. ووعده والده بأنّه يعينه مهما كان خياره.

فأتى جبرايل حوّا إلى عبدالله، وأخبره بالذي صار معه ووالده، وأنّه ينوي التوجُّه كما ذُكر أعلاه. فتشجّع عبدالله وصارَحَ والده مُظهرًا له نيّته وعزمه، وأنّ مراده أن يتوجّه مع جبرايل حوّا. فمانَعَه والده لأنّه كان يراه رقيق الجسم ضعيفًا. أخيرًا بعد اللجاجة الزائدة، وعده بأنّه يرسله ليزور القدس الشريف على درب الشام. وبعد زيارته يرجع على درب البحر. ومن يافا ينتهي إلى طرابلس. ومن هناك يزور الكرسيّ البطريركيّ في قنّوبين، وغيره من الديورة الكثيرة، وعندئذٍ يختبر ذاته إذا كان له قوّة على سكنى البراري وما شاكلها أو لا؟ فتوجّه جبرايل حوّا ومعه تجارته إلى طرابلس، من غير أن يعرف أحد سرّه إلا والديه فقط. وكان خروجه من حلب سنة ١٦٩٣ في أوّل تشرين الأوّل.

وفي ثاني سنة ١٦٩٤، خرج عبدالله من مدينة حلب برضى والديه، وذهب الى زيارة القدس الشريف ومعه يوسف بن البتن. ومن هناك جاء إلى جبل لبنان مع يوسف المذكور. وتوجّها مع جبرايل حوّا يوم خميس الجسد إلى دير قنّوبين بالوادي المقدّس، وقابلوا السيّد البطريرك إسطفانوس الدويهي علّامة دهره، وأخبروه بنيّتهم بعد أن قبّلوا يديه الطاهرتين.

[1] [هو القدّيس يوحنّا كليماكوس (٥٢٥– ٦٠٦م)، ناسك سوريّ عاش في دير القدّيسة كاترين. يُعرَف بالسُلَّميّ نسبة إلى كتابه الشهير "سُلَّم الفضائل" الذي ينقسم إلى ثلاثين درجة].

وأخيرًا استمدّوا خاطر السيّد البطريرك بواسطة البعض من مطارينه. فانعطف البطريرك إلى مطلوبهم بشرط أن يبتدوا بعمل ما يرغبون حالًا، بحيث إنّ سكنتهم تكون في دير مارت موره بإهدن.

اختبار الحياة الرهبانيّة في أديار لبنان

كانت رغبة البطريرك الدويهي، بعد سماعه أقوال هؤلاء الشبّان الثلاثة، عبد الله ورفيقَيه الحلبيَّين، أن يجمعوا، كما قالوا، قانونًا من رسوم الآباء القدامى القدّيسين: أنطونيوس وباسيليوس وأفرام وغيرهم، ويُنْشِئوا طريقة جديدة لهم ولغيرهم يمارسونها وتلائمهم.

فامتثلوا أمر السيّد البطريرك وأخذوا يعملون، في دير قنّوبين، ما يجب على المبتدئين أن يعملوه حال دخولهم للدير. وبعد مدّة، لبّى عبد الله ورفيقه يوسف البتن دعوة المطران جبرايل البلوزاويّ أسقف حلب ومُنْشِيء دير طاميش ورهبانه، بعد أخذ موافقة أخيهما الكبير جبرايل حوّا الذي فضَّل البقاء في دير قنّوبين، وذهبا إلى دير طاميش هذا ليختبرا فيه طريقة العيش التي يعيشها فيه رهبانه وراهباته. ومكثا هناك ما يقارب الثلاثة أشهر. وكان في الدير تسعة رهبان، والمطران البلوزاويّ، وكثرة من الراهبات يسكنَّ في ناحية من الدير بعيدَات عن الرهبان. فوجدا ترتيبهم كباقي رهبان البلاد، وحسب عادة الرهبان العبّاد المعروفين في البلاد وعيشتهم، وهم لا ينذرون النذر الرهبانيّ، ولا توجد عندهم الطاعة المقدّسة، إنّما يلبسون زي الرهبنة في أيّ يوم اتّفق، كنحو رأي المتقدّم في الدير. وغالبًا كان المطارين يُلبسون المبتدئين الإسكيم الرهبانيّ لا رؤساء الأديار إلّا نادرًا. وكان التزامهم بنذر الرهبنة من غير إقرار النيّة. والرئيس الذي كان يرأسهم في غياب المطران لم يكن اسمه عندهم رئيسًا، بل يدعونه باسمه فقط.

وهكذا رؤساء كلّ الأديار لم يكونوا يدعونهم إلّا باسمهم: قسّ فلان. وكلمة " أبونا الرئيس" ما كان لها وجود في بني مارون أصلًا. ولم يكن عندهم أيضًا حدود لتجربة المبتدئين، ولا حركات سجدات الرهبان للرؤساء، ولا قوانين لتأديب الرهبان في حين الزلّات، بل كانوا سائرين بسذاجة وبساطة صالحة للصالحين وخَطِرَة لغير الصالحين، حسب تعبير المطران عبدالله. وكان مطبخهم وكرارهم (أي بيت المؤونة) وغسل ثيابهم والخياطة بيد الراهبات الساكنات في مكان عزلة بحذائهم [أي بإزائهم]، كما هي عادة ديارة بلادهم. وكانت الكنيسة مشتركة بين الجميع.

إنّ حياة الرهبان النسكيّة القَشِفَة في دير سيّدة طاميش، استهوت الأخوين عبدالله ويوسف البتن. فمالَ خاطرهما للسكن عندهم، بعد مشورة جبرايل حوّا المقيم في دير قنّوبين، بشرط أنّ المطران البلوزاوي يُخرِج الراهبات من دير طاميش، لأنّهما رضيا بالدير ومعاشرة الرهبان، ولكنْ دون مساكنة النساء. ولذلك راسلا المطران على رفعهنّ من الدير ليبقيا عنده. فأبى ذلك.

تأسيس رهبنة جديدة منتظمَة

ولمّا لم يقبل المطران جبرايل البلوزاويّ بفصل الراهبات عن الرهبان، إتمامًا للقوانين وحفظًا لراحة الضمير، عَدَلا عن الترهّب في دير طاميش، عنده، ورجع عبدالله وحده إلى عند جبرايل في قنّوبين، وبقي يوسف البتن في دير طاميش ينتظر هناك مراسلته له.

وفي سنة ١٦٩٤، وبعد أحداث دامية في بلاد الجُبَّة، خرج البطريرك من قنّوبين، وأخذ يجول في بلاد البترون وجبيل، ويزور القرى ويجبي البطريركيّة (أي يجمع العشور السنويّة)، وأخذ معه عبدالله وجبرايل بمنزلة شمامسة ليخدماه. وكان لهما بذلك غرض مقّدس، وهو زيارة ديورة بلاد جبيل والبترون، وتمييزها بإمعانٍ لعّلها توافقهما للسكن فيها.

وفي سنة ١٦٩٥، رجع عبدالله وجبرايل إلى قنّوبين، ومكثا فيه إلى ابتداء الصيف من تلك السنة. وقدَّم غبطته لهما دير مارت موره بإهدن، في أوّل آب من هذه السنة أيضًا، فطلبا منه الإذن شاكرَين، وصعدا إلى دير مار سركيس إهدن، وأتيا بأخيهما يوسف البتن من طاميش.

وعندما تمَّ الاجتماع بين الثلاثة مجدّدًا، في دير مار سركيس بإهدن، قرّروا الإقامة معًا في دير مارت موره، نزولًا عند رغبة السيّد البطريرك الدويهي، وسيادة المطران جرجس بنيمين الإهدنيّ الذي كان يساعدهم بنصائحه ومشوراته، وأن يجروا الطريقة الرهبانيّة التي يَصْبُون إليها، ولم يكونوا يجدونها في أديار لبنان القديمة. واستمرّوا على العيش الرهبانيّ هكذا طَوال ذلك الصيف.

وفي شهر أيلول من السنة ذاتها، استقرّ رأيهم على السكن في دير مارت موره بإهدن. وفي هذا الوقت حضر من حلب والد جبرايل ووالدته، وكانا عائدَين وقتها من زيارة القدس الشريف، وطلبا من السيّد البطريرك أن يرسم ولدهما جبرايل قسّيسًا ليفرحا به قبل رجوعهما إلى حلب. فوافق البطريرك ورسمه هو وعبدالله، في إهدن، شمّاسَين إنجيليَّين. وفي اليوم الثاني سام جبرايل وحده قسّيسًا من غير أن يلبسه الإسكيم الرهبانيّ، بل بقي مثل كهنة العوامّ. وكان ذلك في العاشر من شهر تشرين الثاني من سنة ١٦٩٥.

وبعد أن قرّر الجميع السكن في دير مارت موره، شرعوا في الاستعداد لبنيانه لأنّ الدير كان منهدمًا كلّه إلاّ القليل منه. وكان فيه راهب واحد وحده غير كاهن، وهو كبير السنّ ويُدعى أنطونيوس، ودخل معهم في شركتهم الرهبانيّة. واستغرق البنيان والترميم مدّة شهرين. وكانت النفقة من مال القسّ جبرايل حوّا، والشمّاس يوسف البتن. أمّا الشمَّاس عبدالله فلم يكن يملك شيئًا من المال ليشاركهما في الدفع.

إقامة الأب حوّا رئيسًا أوّلًا على الرهبنة

وفي شهر تشرين الثاني من السنة نفسها (١٦٩٥)، صار في البلاد خوف من طائفة الحمادية الذين كانوا حكّام المنطقة، فتركوا دير مارت موره ونزلوا إلى دير قنّوبين ليشتّوا فيه، لأنّ البرد في إهدن كان شديدًا، والثلج كثيفًا، وفي قنّوبين أخذ البطريرك يحثّهم [حوّا والبتن وعبدالله] على لبس الإسكيم من يده، فقبلوا بذلك ولم ينذروا نذورهم، ووَضَعَ الإسكيم على رؤوسهم بعد صلاة قليلة، كما هي عادة أديار البلاد، وذلك في العاشر من تشرين الثاني من تلك السنة.

وبعد لبسهم الإسكيم الرهبانيّ، اجتمعوا وحدهم وتكلّموا في إقامة رئيس عليهم، وأقاموا الأب جبرايل حوّا رئيسًا. وبعد زمان قليل، غادر البطريرك الدويهي نحو بلاد كسروان خوفًا من باشا طرابلس. ونزلوا هم إلى طرابلس في ابتداء سنة ١٦٩٦، واستأجروا بيتًا في دير الآباء اليسوعيّين، وشتّوا فيه نظرًا لشدة الثلج والبرد في إهدن.

تمليك مار أليشع بشرّي

وفي أوّل الربيع من سنة ١٦٩٦، صعدوا إلى دير مارت موره، وأكملوا باقي البنيان اللازم في الصيف، ثمّ كتب الثلاثة صكًّا على أنفسهم أنّه في حال افتراق أحدهم عن إخوته الآخرين، لا يأخذ معه شيئًا من المال البتّة. وختم المطران جرجس بنيمين التمسّك [الصكّ أو التعهُّد] المذكور. ثمّ تذاكروا في حال الدير والشتاء والثلج الكثير الذي يصير فيه، ورأوا أنّه من الأوفق أن يمتلكوا موضعًا دافئًا في الشتاء القادم غير دير مارت موره.

وكان أهالي قرية بشرّي يدعونهم إلى أخذ دير مار أليشع الكائن في الوادي المقدّس (في بطن الصخر الكبير القائمة عليه مدينة المقدَّمين بشرّي). فذهب الأب الرئيس حوّا ومعه عبدالله إليه، وتمّ تملّك الدير المذكور برضا أهالي البلدة بأجمعهم. ونقل الأب الرئيس إلى الدير المذكور بعض الرهبان الذين قدموا ليترهّبوا معهم، واتّخذ الشمّاس يوسف البتن بمنزلة رئيس في مدّة غياب الأب الرئيس حوّا، لأنّ الرئيس هو الذي كان يسوس دير مار أليشع. أمّا عبدالله فكلّفه بسياسة دير مارت موره.

سيامةُ عبدالله كاهنًا

ارتسم الشمّاس عبدالله كاهنًا في يوم عيد الصليب المكرَّم، في ١٤ أيلول من سنة ١٦٩٦، في دير مارت موره بوضع يد المطران جرجس بنيمين الإهدنيّ عليه. وفي الشتاء نزل أهالي إهدن إلى زغرتا لتمضية الشتاء هناك كالعادة. وبأمر الرئيس نزل عبدالله معهم ليعلّم الأولاد في مدرسة مار يوسف الكائنة في زغرتا، وكان يومئذ ابتداءُ بنيانِها، ونزل الرهبان يشتّون في دير مار أليشع بالوادي، وسَلَّم الرئيس دير مارت موره إلى الراهب أنطونيوس الشيخ ليحرسه إلى أن جاء الربيع، ودخلت سنة ١٦٩٧. ثمّ صعد الرهبان إلى دير مارت موره في بدء الربيع، وصعد هو معهم إليه أيضًا، وبقيَ كلّ الصيف يعلّم الأولاد في الدير.

جمعه القانون الرهبانيّ

وفي هذه المدّة (١٦٩٧) كان اهتمام الأب الرئيس حوّا والرهبان في جمع القوانين الرهبانيّة، وانتخاب ما يحسن من كتب الآباء الشرقيّين. وأقبل عليهم عدّة رهبان، وبعضهم لبسوا الإسكيم من يد الأب الرئيس حوّا، من غير إبراز النذر، كعادة الموارنة، وبعضهم مبتدئين. وأحبّ الرئيس حوّا أن يجعل تجربة المبتدئ بالقلنسوة (أو الإسكيم) كرهبان الإفرنج (الكرمل والكبوشيّين)، وإذا كان لا يصلح للرهبنة ينزع عنه الإسكيم، ويرّده إلى العالم.

ولكنّ السيّد البطريرك منعه عن هذا الإجراء، وحتّم أنّ من لبس الإسكيم فلا يبقى له سلطان بأن ينزعه عنه أبدًا. وقد اغتاظ الرئيس من هذا البعض الذين كانوا قد لبسوا الإسكيم على نيّة التجربة، بزعمهم لعّلنا لا نقوى على الرهبنة. ولكن في ما بعد جميعهم ثبتوا وترهّبوا. وفي هذه السنة (١٦٩٧) تمّ جمع القانون من اثنين وعشرين بابًا. وقد حدّدوا فيه شكل الإدارة الرهبانيّة، ومفهوم النذور، وكيفيّة سلوك الرهبان، وقرّروا إقامة أربعة مدّبرين عامّين تختارهم الرهبانيّة، وذلك ليشتركوا مع الرئيس العامّ في تدبير الأمور، واختيار رؤساء الأديار والمراكز، وحُدّدت مدّة الرئاسات بثلاث سنوات، ينعقد في نهايتها المجمع الرهبانيّ العامّ، في العاشر من تشرين الثاني، تذكرة لأوّل يوم الرهبنة.

المجمع العامّ الأوّل

وفي العاشر من تشرين الثاني من سنة ١٦٩٨، انعقد المجمع العامّ الرهبانيّ. فثبّت القسّ جبرايل حوّا في الرئاسة العامّة، وأقام معه أربعة مدّبرين عاميّن، كان عبد الله قراعلي، وجبرايل فرحات الذي لحق برفاقه من حلب إلى قنّوبين سنة ١٦٩٦، ويوسف البتن، من جملتهم. ومجمع المدبّرين هذا عيَّن عبدالله قراعلي رئيسًا على دير مار أليشع. وعيّن الأب الرئيس على دير مارت موره الأب جبرايل فرحات رئيسًا. وكان الرئيس العامّ جبرايل حوّا جامعًا، إلى النجاته والفضيلة، قوّة المخيّلة، ورقّة الشعور، وسموّ الأخلاق والمدارك. لكنّه كان عصبيّ المزاج، مشغوفًا بالعزلة والهدوء ليتفرّغ للمطالعة، والتأمّل، ومناجاة الخالق. فكان يفضّل إمساك القلم على دفّة الإدارة، ونظم الأشعار على تنظيم الصفوف...

الاختلاف في الرهبنة على الهدف، وإثبات القوانين

فهذه الصفات الحميدة التي ظهرت في سيرة الأب عبدالله قراعلي، أهّلته لأن يتدارك الخلاف الشديد الذي نشب، تلك السنة، بينه ومعه أكثر الرهبان، وبين الأب الرئيس حوّا على معنى سيرة الرهبنة ومفهوم وظيفة المدبّرين العامّين. فالرئيس حوّا كان يريد الرهبنة للوعظ والتبشير والتعليم والرياضات، وأن تكون رئاستها مطلقة مؤبّدة على مثال الآباء اليسوعيّين، لأنّ حوّا كان يعاشرهم ويطّلع على كلّ أعمالهم، ولذلك أراد أن تكون الرهبنة مثلهم. وأمّا عبدالله وأغلبية الرهبان فقد استمرّوا يريدونها رهبنة نسكيّة تأمّليّة خورسيّة، لا تتعاطى بالرسالة والتعليم إلّا عند الحاجة، وقدر الإمكان، بل تكون ذات رئاسة مؤقّته، وتبقى متمسّكة بوظيفة المدبّرين. وبسبب هذا الخلاف الجوهريّ بين حوّا وعبدالله، كادت تتفكّك أوصال الرهبانيّة، وهي لا تزال في مهدها.

ولمّا وجد الأب الرئيس أنّ مقصده لن يتمّ، أشار عليهم بالسعي عند السيّد البطريرك ليثبّت لهم القانون الجديد وينذروا عليه، ويبطل كلّ قيل وقال. فرضخوا لقوله هذا، وساروا إلى قنّوبين عند البطريرك، وطلبوا منه أن ينعم عليهم بإثبات القانون الجديد. فأنعم غبطته عليهم بذلك وأثبته لهم بحضور البعض من السادة المطارين. وكتب في صورة التثبيت هذه الجملة، وهي: "إنّنا لا نبرّيء أولادنا الرهبان من قوانين ماري أنطونيوس الكبير". ولأجل هذه الجملة لم يقبلوا هذا التثبيت، واعتذروا لدى السيّد البطريرك أنّ قوانين القدّيس أنطونيوس كثيرة ومختلفة. وأكثرها تختصّ بالرهبان المتوحّدين، لا أصحاب الديورة الجامعة. وإنْ هم قبلوا هذه الجملة يتولّد لهم منها أتعاب كثيرة يمكن حدوثها من قِبَل الرؤساء الذين سيجيئون بعدهم، ومخاطرات غير هذه أيضًا. وتوسّلوا إلى السيّد البطريرك أن يعفيهم من هذه الجملة. ولمّا ألحّوا عليه، اغتاظ وأبطل التثبيت. أمّا هم فقد رجعوا إلى ديرهم محزونين.

انتهاء الخلاف بتنحية الأب حوّا وانتخاب عبدالله

ولم ينتهِ ذلك الخلاف الحادّ في الرهبانية إلاّ بتنحية الأب جبرايل حوّا عن الرئاسة العامّة، وإسنادها إلى الأب عبدالله قراعلي في مجمع عامّ في الرهبنة انعقد قبل الأوان، سنة ١٧٠٠، بدون معرفة الرئيسَين المذكورَين، وتمَّ انتخاب الرئيس الجديد عبدالله عندما قَبِلَ أمر السيّد البطريرك بقسمة الرهبانيّة قسمتين بينه وبين سالفه الأب حوّا الذي أُعطيَ دير مارت موره قسمة له، ودير مار أليشع قسمة للأب عبدالله، وتخيير الرهبان بين الرئيسين. وهكذا لم يلحق القسّ حوّا إلّا إسكيميٌّ واحد، وبعض المبتدئين. وهذا القليل لم يبلغ نهاية السنة حتّى تبدّد. أمّا عبدالله فبقي وحده في دير مار أليشع بالوادي يرعى رهبانيّته بعناية أبويّه حقّة، ساهرًا

على حفظ الانسجام بينه وبين المدبّرين العامّين، احترامًا للقانون الذي كان له اليد الطولى في جمعه وترتيبه والحصول عليه، بعد محاولات عديدة فاشلة، وعلى تثبيته من قبل السيّد البطريرك في اليوم الثامن عشر من حزيران سنة ١٧٠٠، بعد أن حوَّره واختصره في خمسة عشر بابًا فقط، وهذه النسخة المختومة من البطريرك ما تزال محفوظة في دير سيّدة اللويزة. ففرح الرهبان لهذه النتيجة فرحًا كبيرًا، وقبلوا أن ينذروا بموجبه امتثالًا لرغبة أبيهم عبدالله، وكانوا اثني عشر راهبًا، ما عداه هو.

وتسلّم قراعلي، بعد الأب حوّا، الرئاسة العامّة في الرابع عشر من شهر آذار سنة ١٧٠٠. وفي اليوم التالي سار والقسّ جبرايل حوّا، المتنزّل عن الرئاسة، إلى عند السيّد البطريرك الدويهي ليعلماه بما كان. فلمّا سمع غبطته الخبر، وتيقّن أنّ حوّا تنزّل عن الرئاسة برضاه، لأنّ ذلك هو الأحسن والأوفق لبنيان الإخوة الرهبان ولراحته هو، رضيّ السيّد البطريرك بذلك، وبارك لقراعلي، وكتب للرهبان منشورَ بركة يوصيهم بطاعته. وبعد ذلك ودّعا البطريرك، ورجعا إلى دير مار أليشع حيث كان المجمع العامّ.

تثبيت القانون مجدَّدًا

وبعد ذلك بأيّام قصد القسّ جبرايل حوّا الرئيس العامّ قراعلي، من تلقاء نفسه، وعرض عليه مرافقته إلى عند السيّد البطريرك، ليسعيا معًا في تثبيت القانون مجدّدًا. فاستصوب كلام القسّ حوّا، وسار للحال معه إلى قنوبين، وطلبا من السيّد البطريرك تثبيت القانون، وكان عنده أربعة مطارين. فوافق اثنان منهم (المطران جرجس يمّين مطران إهدن والمطران يعقوب عوّاد الحصرونيّ)، وتمنّع الآخران. لكنّ البطريرك لم يثبّته. ورجعا إلى الدير خائبَين حزينَين.

ثمّ عادا وكرَّرا المحاولة، وكان المطرانان الممانعان، في المرّة السابقة، يزهّدان البطريرك في تثبيت القانون هذه المرّة كذلك. وتكرَّرت محاولتهما مرارًا عديدة من غير جدوى. فما كان من الرئيس العامّ قراعلي إلّا أن اختصر القانون وجعله خمسة عشر بابًا، وطرح من الخمسة عشر بابًا فرائض. وقصد السيّد البطريرك في قنّوبين، ومعه اثنان من رهبانه، وألحّ كثيرًا لأجل تثبيت القانون. فوافق السيّد البطريرك، وثبّت القانون، وختمه بختم الكرسيّ البطريركي. وكان ذلك في حزيران من سنة ١٧٠٠.

والقانون الجديد، الذي اختصره الأب عبدالله إلى خمسة عشر بابًا، مرّتب كما جاء في مذكّراته هكذا: الطاعة، العفّة، الفقر، كسوة الرهبان، سكنى القلالي، السفر، المائدة، عمل اليد، الصمت، الصلاة العقليّة، الصلاة اللفظيّة، ثمّ الاعتراف وتناول الاسرار، والأدب، والمرضى.

أمّا نصّ التثبيت الذي منحه البطريرك فهو التالي: "وجه تحريره هو أنّنا قد وقفنا على الخمسة عشر بابًا ومقدّمتها التي إنمّا ترّتبت ليكون أولادنا الرهبان الأعزّاء سالكين بها على طريقة واحدة، بحفظها، ليتيسّر لهم الاقتداء بالنذور المفروضة عليهم. فمن تعدّى أمرًا من هذه الابواب لا يخطيء إلاّ إذا كان الامر ثقيلًا، وخاصّة إذا صدر منه معثرة للإخوة وغيرهم.

فنحن بالسلطان الرسوليّ وبمشورة إخوتنا المطارين المكرّمين نثبتّها لهم، ونحرّضهم على السلوك بحسبها ليحظوا بالآخرة الصالحة. تحريرًا في ١٨ حزيران سنة ١٧٠٠ ".

+ بطريرك أنطاكية وسائر المشرق +

الحقير إسطفانوس

هذا هو الأساس المتين (القانون) الذي وضعه بيده الأب عبدالله قراعلي، المؤسّس الأصيل، في فجر تولّيه لأمر الرهبانيّة الحلبيّة اللبنانيّة، وقد شَيَّدَ عليه البناء الفخم العظيم الذي ثبت أمام عواصف الزمان، وزوابع الحدثان، التي اجتاحت لبنان منذ سنة ١٧٠٠ لغاية الآن. وبعد مرور أكثر من ثلاثة أجيال على هذا العمل الخطير، لا يزال أبناء الرهبنة يشعرون بما خالج قلب هذا الراهب التقيّ الغيور، وقلوب إخوته الرهبان، من الفرح والحبور لفوزهم بهذا التثبيت الرسميّ الجليل لرهبانيّته العزيزة بعد ما قاست من المحن والاضطهادات ما لا يمكن إحصاؤها عبر السنين. ولمّا بلغ الأب عبدالله ديره وبشّر إخوته بهذا الفور الباهر، انتهز فرصة تحمّسهم، ودعاهم إلى إبراز النذر بموجب القانون الرسميّ فأطاعوه برضاهم، وكان عددهم ثلاثة عشر راهبًا مع عبدالله رئيسهم العامّ، وهم: الأب عبدالله قراعلي الرئيس العامّ، الشمّاس يوسف البتن، الياس الحلبيّ، يعقوب الغزيريّ، يوحنّا البانيّ الشماليّ، يعقوب أروتين الحلبيّ، عبدالله البشرّاويّ، موسى البلوزاويّ، ميخايل الحلبيّ وهو سريانيّ الأصل، يوحنّا الهدنانيّ أو الإهدنيّ، جبرايل الشننعيريّ، منصور الشبابيّ، يوحنّا الغزيريّ.

تقسيم الرهبنة إلى قسَمتين بناءً على أمر البطريرك

وبعد أن أبرز الرهبان نذورهم وَفْقًا لقانونهم الرسميّ الجديد، كان القسّ جبرايل يسكن قليلًا في الدير ثمّ يضطرب، ولم يقدر أن يستقرّ في الدير طويلًا، بل كان يتوجّه إلى بعض أماكن، ويغيب طويلًا من غير مشورة الأب العامّ. فتسبَّب ذلك بفتور العلاقة بينهما، وتفاقمِ الخلاف، سيّما وأنّه كان يتهامل كثيرًا بالطاعة والقانون، وراح البعض من الرهبان "يلذعونه بالكلام". وبلغ به الأمر حدًّا جعله يقصد البطريرك ويشتكي على الأب العامّ عبدالله. ومن جملة ما اشتكى به عليه زعمه أنّ الأب الرئيس يريد أن يهجر دير مارت موره ويتركه بالكلّيّة. فأرسل البطريرك في طلبه للحضور عنده. ولمّا حضر أمامه لم يجد عليه مدخلًا ليخاصمَه، ووعظهما على المحبَّة، وأرسل المطرانان جرجس يمّين ويعقوب عوّاد إلى دير مار أليشع، وأخذا الرهبان على انفراد، وسمعا الشهادة منهم أنّهم أقاموا عبدالله رئيسًا عليهم بخاطرهم. وبعد مغادرة المطرانَين كتب الأب العامّ رسالة إلى البطريرك يعلمه فيها أنّه مستعدٌّ للتنازل عن الرئاسة العامّة للقسّ حوّا. فدعا البطريرك الأخير للتوجّه إلى ديره وتسلّم الرئاسة على الدير، لكنّه أبى متذرّعًا بأنّه إن رضيَ فإنّ الرهبان لن يرضوا، ولن يطيب له عيش معهم.

ولمّا وجد البطريرك أنّ مسعاه لن يفيد حَكَمَ بالفسخ بين الطرفين، وبالقسمة إلى قسمين، وأرسل في طلب الأب عبدالله لعنده. ولمّا حضر أمامه، أبلغه قراره أنّه حكم بالقسمة بينهما، وهذه صورتها:

"وجه تحريره هو أننّا وقفنا على الخلاف الواقع بين أولادنا الرهبان الحلبيّة، وهو أنّ ولدنا القسّ جبرايل حوّا قاصد التبشير وخلاص الأنفس، وولدنا القسّ عبدالله قراعلي قاصد عيشة النسك والصلاة والرياضة. فتنازلنا نحن إلى سؤلهم، وأمرنا القسّ جبرايل أن

يكون مقيّدًا بدير مارت موره بإهدن وبنيانه، والقسّ عبدالله بدير مار أليشع الوادي في بشرّي وعماره. وأمّا رِزْقُ الإخوة الذين كانوا بينهم بعقد الشركة فينقسم بينهم مناصفة، بعد وفاء الدين إن كان هناك دين، وأنّ كلّ واحد من الإخوة يأخذ ما يحتاج إليه من المؤونة والكسوة. ويسكن تحت طاعة الرئيس الذي يرتضيه من الإثنين. وكان ذلك برضى وقبول من الجانبين. نسأل الحقّ سبحانه وتعالى أن يكون ناظرًا إليهم ومساعدًا لهم ليحظوا بالخلاص هم وغيرهم. تحريرًا في دير قنوبّين في الخامس من تشرين الثاني سنة ١٧٠٠ للتجسّد الإلهّي صحّ صحّ ".

الحقير

إسطفانوس البطريرك

+ الأنطاكيّ

وبعد تبلّغهما قرار البطريرك، مضى كلٌّ منهما في سبيله، ثمّ ابتدأا بالقسمة كما حَكَمَ بينهما. وبمقتضى حرّيّة الاختيار التي أُطلقَت للرهبان، تبع الأب حوّا واحد منهم، وتبع الآخرون الأب قراعلي. ثمّ تمّت قسمة المؤونة كنحو عدد الرهبان، وتمّ بينهما الانفصال، وبطل القلق، وصار هدوء وسكون في الديرَين.

هَجْرُ الأب فرحات لرهبنته

وما كادت تهدأ الأحوال بعد القسمة، حتّى واجهت الرهبنة الناشئة مسألة جديدة مفادها أنّ القسّ جبرايل فرحات حضر عند السيّد البطريرك، وأبلغه برغبته في الانفصال عنهم. فأرسل غبطته يطلب الأب قراعلي إليه، وأخبره برغبة القسّ فرحات، وأنّه يريد أن يجلس وحده في زغرتا يعلّم الأولاد هناك لأنّه، كما يقول، ضعيف الجسيم، ولا يقوى على العيشة معهم. وقد فارق الرهبنة قدّام السيّد البطريرك، ولم تُجدِ نفعًا محاولة الأب قراعلي إقناعه في الرجوع عن رأيه.

نزاع جديد بين القسّ حوّا ومطرانه جرجس الإهدنيّ

لمّا انفرد القسّ جبرايل حوّا مع الذين تبعوه إلى دير مارت موره، ابتدى يسلك كنحو رسوم رهبنة اليسوعيّة: قرع الجرس قبل الغداء لفحص الضمير، زيارة المرضى في القرى والمدن، السماح للنساء بالدخول إلى كنيسةِ الدير، عدم التمسُّك بالصيام اليوميّ من غير إذن الرئيس، القول عند إتمام طلبة السيّدة التي تُتلى في الكنيسة قبل النوم: "يا مار إغناطيوس تضرّع لأجلنا". وقصدهم بذلك الإختصاص التامّ بقانون مار إغناطيوس. ودخل عندهم مبتدئون غير الذين تبعوهم بعد القسمة. وابتدأوا ينمون. وسلكت المحبّة بين الفريقَين المنقسمَين، وصار رهبان القسّ حوّا يتردّدون إلى دير مار أليشع، الذي صار رهبانه يقولون بأنّ ما جرى هو من تدبير الله، وأنّه الجيّد.

وقبل أن تنقضي سنة ١٧٠١، وقعت المخاصمة ما بين الأب جبرايل حوّا ومطرانه جرجس بنيمين (مطران إهدن الذي ترك فيما بعد الأسقفيّة وصار راهبًا يسوعيًّا)، واشتدّت الفتنة بينهما، ووصلا إلى المرافعة قدّام السيّد البطريرك. وقبل هذه المخاصمة، عمد عدد من رهبان القسّ جبرايل حوّا إلى الافتراق عنه، وصار في حزنٍ عظيم وضيقٍ كبير، وجاء إلى دير مار أليشع، وقابل الأب قراعلي، وتذاكر معه في ترك دير مارت موره والرجوع إلى دير مار أليشع والإقامة فيه كواحد من رهبانه ولكن من غير نذر. وشاور الرئيس العامّ قراعلي مدبّريه في الأمر، فرفضوا ذلك ما لم ينذر مثلهم، ويرتبط بالقانون كواحد منهم. فما كان منه إلّا أن عاد إلى دير مارت موره، وتصالح مكرَهًا مع المطران جرجس، لكنّه لم يستطع الثبوت فيه لأنّ البعض من رهبانه تركوه، ولم يقدر هو على الصبر والاحتمال. فقصد السيّد البطريرك وأقنعه بأن يأذن له في الذهاب إلى مالطة لاستجلاب مطبعة من هناك تنتفع بها الطائفة. فأذِن له البطريرك بالسفر، فغادر مارت موره في تشرين الأوّل عام ١٧٠١ إلى طرابلس أوّلًا، ومنها توجّه إلى مالطة. ولـمّا لم ينجح مسعاه فيها قصد إلى رومية. أمّا رهبانه فلم يبقَ منهم غير اثنين في مارت موره، والآخرون عاد البعض منهم إلى العالم، وبعضهم جاء إلى رهبان الأب قراعلي[١].

استقرار وتنظيم وازدهار

ابتدأت الرهبنة في أيّام الأب عبدالله تنمو وتزيد في الخير. وكان رهبانها حريصين على حفظ قانونهم الجديد. وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني عام ١٧٠٢، وهو يوم ذكرى ابتداء الرهبنة، إذ في مثل هذا اليوم من عام ١٦٩٥ وضع البطريرك الدويهي الإسكيم الرهبانيّ على رؤوس المؤسّسين الثلاثة، وقبل انقضاء فترة السنوات الثلاث المُحدَّدة لاستمرار الرئاسة العامّة، (كان من المفترَض أن تكون فترة انقضائها في شهر آذار من العام التالي ١٧٠٢)، عُقِدَ مجمع "تغيير الرئاسة"، وانتَخب الأب قراعلي رئيسًا للمرّة الثانية. واستمرّ عدد الرهبان، بعد ذلك، ينمو، حتّى امتلأ دير مار أليشع رهبانًا عام ١٧٠٤، وجرى التفكير بتوسيعه.

وفي العام ١٧٠٥، في العاشر من تشرين الثاني، عُقِد مجمع رهبانيّ آخر "لتغيير الرئاسة"، وانتَخب المجمع الأب قراعلي رئيسًا للمرّة الثالثة. وفي هذا المجمع نذروا جميعهم النذر الرابع، وهو عدم طلب الرئاسات. واختصر الرئيس العامّ شرطونيّة لبس الإسكيم، آخذًا صورة النذورات من رهبان الكرمل الحافِين.

القائد الحكيم

وعن قيادته الحكيمة لرهبنته، نلخّص أبرز ما ذكره الأب توما اللبّودي حول هذا الموضوع. فبعد إنشاء ديرَي مارت موره ومار أليشع، وتلك المخاصمات التي حدثت، استمرَّ عبدالله في دير مار أليشع، وأنشأ الطريقة المعيشيّة الرهبانيّة كما شرحنا. فابتدأ أوّلًا سيرة التقشّف في جميع حركاته، فعمل عرزالًا من عيدان حطب وقشّ وكان ينام عليه من غير فراش. وكان يعقره ويوجعه كثيرًا، وقد استدام على هذه الحال سنتين ... وكان في أوّل مبتداه يصلّي ساعة صباحًا، ونصفًا بعد صلوات السواعي، وساعة عند

[١] [وحول ما جرى للقسّ حوّا بعد وصوله إلى روما، وما حلّ بدير مارت موره، يُراجَع: فهد الأباتي بطرس، المرجع نفسه، ص ٤١].

المساء. وقد امتثل به كثيرون من رهبانه ... وكان بعد صلاة نصف الليل يبقى في الكنيسة منتصبًا للصلاة أمام المذبح لغاية صلاة الصبح. ومن كثرة المطانيّات [السجدات] التي كان يعملها في الكنيسة ليلًا تكلكت ركبتاه ... وكان يمتنع عن كلّ شيء يعرف أنّه يتلذّذ به ... وكان يأكل كلّ أربعة وعشرين ساعة مرّةً واحدة في العشاء ... وبلغ من قمع جسده حدًّا من الضعف حتّى إنه أراد يومًا أن يُنهِض بيديه مقدار ثلاثة أرطال فلم يستطيع ... وكان يعطي كلّ صباح مَوضوعًا روحيّا لكّل واحدٍ حسب مقدرته وموهبته، وكان يجمع كلّ اثنين في موضوع واحد ليذكّروا بعضهم به في النهار... ومع أنّ المبتدئين كانوا كثيرين فكان يوزّع المواضيع حسب فهم كلّ واحد منهم... وأمّا غيرته على حفظ الطهارة فيكفي الإمعان في كلامه عنها في شرح القانون لمعرفة أيّ حدٍّ بلغ في هذه الفضيلة الملائكيّة... وكان هذا المغبوط مفعمًا من الله حكمة وإفرازًا ونسكًا، وكان ذا عقل ثاقب وعلم راسخ، ومحبوبًا مِن كلّ مَن يراه... وبما أنّ صيامه لم يكن يخفى عن الناس، فقد تغايرت الرهبان والكهنة على الصيام مثله...

عودة فرحات إلى الرهبنة

ذكرنا، سابقًا، أنّ القسّ جبرايل فرحات هجر الرهبنة في سنة ١٧٠٠، وانفرد في قرية زغرتا يعلّم الأولاد هناك. وفي سنة ١٧٠٥، رجع إليها بخير، وسبب رجوعه كان مرض جسمه. لأنّ الأطباء نهوه عن السكنى في زغرتا لسوء طبع الهواء والمناخ. فخاف فرحات وطلب من الأب قراعلي أن يقبله عنده، فتمّ قبوله بفرح. وفي هذه السنة أقيم رئيسًا على دير مار أليشع لجودة فطنته، وحسن غيرته. وكان حادّ المزاج، بليغًا في همّته، وذا علم راسخ، فيلسوفًا، وشاعرًا مفلّقًا، وله قيمة عظيمة عند الأكابر والأصاغر لفصاحته ودقّة فهمه.

دير مار أشعيا والخوري سليمان المشمشانيّ

وفي السنة ذاتها (١٧٠٥) أخذ قانون الرهبنة الخوري سليمان المشمشانيّ الذي كان رئيسًا على دير سيّدة طاميش. ولرغبته بالقانون ترك دير طاميش برضى رئيسه ومنشئه المطران جبرايل البلوزاوي، وسكن دير مار أشعيا مع من تبعه وسلكوا بموجب القانون الذي اتّخذوه، وما صعب منه عليهم كانوا يأخذون فيه مشورة الأب قراعلي، وبقيوا عليه.

الأديار التي أسَّسها الأب عبدالله قراعلي

لمّا ضاق دير مار أليشع بالرهبان الحلبيّين الذين كانوا تابعين الرئيس عبدالله قراعلي، فكّرَ بفتح أديار جديدة في مناطق مختلفة من لبنان وخارجه، في رشميّا منطقة الدروز كما كان يسمّيها، وفي زوق مصبح بكسروان، وفي قزحيّا بالشمال، وفي رومية بإيطاليا، وفي بيت شباب بالمتن، وفي غيرها من المناطق. ولم يكن هذا الازدهار والنموّ منحصرًا في رهبنيّته الجديدة وفي طائفته المارونيّة، بل امتدّ إلى مختلف الطوائف الكاثوليكيّة الأخرى، كما ظهرت فروع مستقلّة في جمعيّات أخذت لها قوانين الرهبانيّة الحلبيّة.

ومن جملة الأديار التي أسّسها الرئيس قراعلي دير مار يوحنّا الصايغ في رشميّا، وتمَّ له ذلك في شهر شباط سنة ١٧٠٦. وقبل أن يتسلّم الرئيس قراعلي الدير المذكور، كان فيه راهبان: إبراهيم الغزيري الذي لم يدخل في الرهبنة، وانفرد في القرية يعلّم فيها

الأولاد. والراهب الآخر هو القسّ حنا من القرية المذكورة، وقد دخل الرهبنة. وبعد تسلُّمه الدير عمل على توسيعه، وأنشأ فيه مدرسة لتعليم الأولاد.

وفي أواخر السنة نفسها (١٧٠٦)، راسل القسّ إغناطيوس سلهب الحاقلاني[١]، صاحب دير اللويزة، الرئيس قراعلي لتسلّم الدير. وقد تسلَّمُه بالفعل بعد مشاورة المدبّرين. وكان للدير عقارات وافرة، لكنّه كان فقيرًا بالبنيان والتجهيزات اللازمة، وكان عليه ديون.فتمّ بنيان اللازم بنيانه، وجُهّزَ أمتعةً للكنيسة وغيرها.

وبعد مضيّ سنة واحدة (١٧٠٧) على تسلُّم دير مار يوحنّا الصايغ في رشميّا، أُهدي للرهبنة دير آخر هناك هو دير مار أنطونيوس صِيْر. وفي السنة ذاتها تسلَّمت الرهبنة دير مار أنطونيوس قزحيّا من المطران يوحنّا حبقوق، وتمّ تأسيس دير مار بطرس ومرشللين في روما، وأُرسِل إليه رهبان من لبنان (تُراجع التفاصيل في كتاب الأباتي فهد، ص ٦٢– ٦٩). وفي سنة ١٧١٢ تمّ افتتاح دير مار بطرس في كُرَيْم التين، تحت بلدة بيت شباب، والمشرِف على وادي الصليب، وعلى البحر (الأباتي فهد، ص ٦٩– ٧٢).

تغيير اسم الرهبانيّة

وفي سنة ١٧٠٧ استحسن الرئيس قراعلي تبديل اسم الرهبانيّة من حلبيّة إلى لبنانيّة لأنّه لمس، بفطنته، أنّ بعض "الإخوة" لا يستحسنون اسم الرهبنة الحلبيّة كونه يشترك مع "سكّان حلب". فطلب من البطريرك يعقوب عوّاد تسميتهم باللبنانيّين، فارتضى بذلك، وصار يراسلهم بهذا الاسم.

العيشة الإنفراديّة

كان الأب عبدالله، الرئيس العامّ على الرهبانيّة الحلبيّة الجديدة، ينشيء الأديار والمراكز كدير مار أليشع، ورشميّا، وصير، واللويزة، وقزحيّا، ومار بطرس ومرشللين برومه، ومار بطرس كُرَيْم التين، ودير السنديانة في عكّار، لكثرة الإقبال من العلمانيّين عليه طلبًا للعيش في الأديار عيشة رهبانيّة تأمّليّة منتظمة، يمارسون فيها وَفْقًا للقانون الصلاة، والتأمّل، والإماتات، والأصوام الاختياريّة، والعمل اليدويّ، وغيرها. لكنّ "البعض من الإخوة الكهنة، يقول الأب عبدالله، تحرّك قلبهم لطلب السكوت والإنفراد، وهذه كانت شهوة المرحوم القسّ يوسف البتن، فطاوعْتُهم إلى ذلك، وأفردتهم إلى مكانٍ في وادي قزحيّا. أحدهما شيخ ويُعرَف بابن شوشان، والآخر شابّ ويُعرَف بابن مبارك. وقد ضيّقت عليهما القانون أكثر ممّا هو في الدير. وسلّمتهما الكرم الذي هو أمام محابسهما ليعملاه ويقاتلا الضجر، [...] وقلّاية جعلوها كنيسة على اسم مار بولا أوّل الحبساء والمنفردين. وكان معاشهما من دير الإخوة في مار أليشع عوض تعبهما في الكرم".

[١] [هو، "قبل ترهّبه، الحاجّ سلهب بن فرج مجاهد بن إبراهيم من أسرة الحاقلاني، مشايخ زوق مصبح، وزوق مكايل. وقد كان لهذه الأسرة وجاهة وثروة وصيت". ولمزيد من التفاصيل، حول هذه الأسرة والدير، يُراجَع كتاب الأباتي بطرس فهد، ص ٥٢– ٥٥].

أعمال الأب العامّ عبدالله العمرانيّة الزاهرة

بعد شرحنا لهذه الأعمال العمرانيّة الزاهرة التي أتاها الأب الغيور والرئيس النشيط المحبّ، عبدالله قراعلي، في مناسبة افتتاحه الأديار التي ذكرناها، وقد قام رحمه الله بها في عهد رئاسته العّامة التي تجدّدت له عفوًا سبع مرّات متتالية، منذ سنة ١٧٠٠ لغاية سنة ١٧١٦ التي فيها ارتقى، قهرًا، إلى الدرجة الأسقفيّة، نتأكّد بزيادة ممّا كان عليه الأب عبدالله من حكمة وحنكة، ونسك وصلاة، وتقشّف وإماتات، ومثابرة على العمل في حقل الرهبنة التي كان يحبّها كثيرًا، ويضحيّ في سبيلها الغالي والنفيس [...].

وهنا نستطيع القول، فضلاً عمّا شرحنا، بأنّ هذا الازدهار العمرانيّ الذي أحرزه الأب الرئيس عبدالله لا ينحصر في رهبنته الحلبيّة الجديدة، بل قد امتدّ إلى مختلف الرهبانيّات الشرقيّة، وهي أوّلًا الرهبنة الأنطونيّة لمار أشعيا برمّانا، وثانيًا الرهبنة الباسيليّة الحنّاويّة المنقسمة إلى اثنتين كرهبانيّتنا، أي الباسيليّة الشويريّة والباسيليّة الحلبيّة. ثمّ الأرمنيّة الأنطونيّة، والكلدانيّة الأنطونيّة، وغيرها.

سيرة الأب عبدالله المثلى أمام رهبانه

ما كان المؤسّس الأب عبدالله قراعلي ليكتفي بأن يسوس رهبانه بسلطته الأبويّة الحكيمة الكاملة، بل كان كالمصباح الساطع أمامهم ينير لهم السبيل، ليمشوا وراءه مستضيئين بنوره الوضّاح، كما قال لنا الربّ في إنجيله الطاهر: امشوا في النور لئلّا يدرككم الظلام فتقعوا في الحُفر والمهاوي. بل كان كالقائد الشجاع الفَطِن، يلهب منهم القوى بمواعظه وإرشاداته ومَثلِهِ الصالح النقيّ. وإنّنا نعرف أعماله المثاليّة من أعمال رهبانه الأوّلين. إذ من ثمارهم تعرفونهم، ومن الشهادات المباشرة عن مسيرته الشخصيّة تدركون مناقبه وصفاته.

أمّا الرهبان الأولّون فقد مدحهم المطران فرحات في تاريخه الرهبانيّ قائلًا: "إنّهم كانوا حريصين جدًّا على حفظ القانون، وكانوا بالطهارة غنيّين جدًّا، وقطعوا كلّ سببٍ يؤذيها. ومنعوا النساء من دخول أديرتهم قطعًا لكلّ سبب، ولم يكن راهب منهم يذهب دون رفيق. ومن جهة الفقر ما كان أحد يقول إنّ ثوبه هو له، أو يستقني شيئًا خاصًّا في قلّايته...وإذا شعر أحدهم أنّ أخاه مغتاظ منه كان يسجد أمامه، ويطلب منه المغفرة...".

وبالنتيجة يمكنا القول إنّ الأب عبدالله الراهب، والأب العامّ، ثابر على هذه السيرة الرهبانيّة الطاهرة، النقيّة، الكاملة، حتّى رُقيّ إلى الدرجة الأسقفيّة الرفيعة، وذلك في ١٧ أيلول من سنة ١٧١٦.

سيامة الرئيس العامّ عبدالله أسقفًا

إنّ السيّد البطريرك يعقوب عوّاد، بعدما تحّدث مع الأب العامّ قراعلي بشأن سيامته مطرانًا على الطائفة معاونًا له في البطريركيّة الأنطاكيّة، لأسباب شخصيّة لم يُظهرها للعيان، وشعر منه بعدم قبول هذه الدرجة الأسقفيّة السامية، مفضّلاً بقاءه رئيسًا عامًّا على الرهبانيّة مع إخوانه الرهبان حيث يعمل خيرًا كبيرًا معهم ومع العلمانيّين على السواء، أمره بأمر الطاعة المقدّسة أن لا يبارح دير سيّدة اللويزة إطلاقًا. وأوعز غبطته إلى مشايخ عجلتون الخوازنة، مريديه وأبناء أبرشيّته، "أن يحرسوه في اللويزة لئلّا يهرب". فأحاطوا الدير المذكور بالرجال المسلّحة، ثمّ حملوه إلى عجلتون وهو يبكي ويستغيث، وأقاموه بحضرة البطريرك ليرسمه مُرغَمًا. ولمّا

اشترط عليه أسقف حلب أمرًا تافهًا، تمسّك الأب العامّ وصاح قائلًا: "لا أمضي ولا أرتسم"، ولم يسلّم قدسه بالرسامة الأسقفيّة إلّا لمّا رأى الخلاف يدبّ بين المشايخ، والفتنة تتفاقم، والسلاح يلعلع، والحزبَين يتحفّزان لمعركة دامية. بعدئذ أمره البطريرك أمرًا قاطعًا أنْ لا يبارح دير اللويزة إلى أن يأتيه خبر منه قائلًا له: "أريد أن أرسمك مطرانًا فتكون عندي لتدبير الطائفة". فنزل عبدالله إلى دير اللويزة منتظرًا الخبر من السيّد البطريرك.

ولّما استحسّ الأب العامّ عبدالله أنّ ما بقي له مناص ولا مهرب، التجأ إلى الصلاة في الكنيسة، ودام على ذلك ثلاثة أيّام صائماً مصليًّا. أخيرًا أرسل يطلب المشورة من المرسلين إليه كالآباء اليسوعيّة في مدرسة عينطوره الذين، بعد أن فهموا كلّ شيء منه، حكموا عليه بأنّه ملزوم أن يطيع، وأنّه بطاعته يرضي الله، وينفع رهبنته.

رئيس عامّ جديد على الرهبانيّة

وبعد الرسامة الأسقفيّة في عجلتون، في ١٧ أيلول سنة ١٧١٦، انتهت المناحة في ديورة الرهبانيّة بمظاهرها المؤثّرة، وسلّم الرهبان أمورهم للمشيئة الإلهيّة كما علّمهم رئيسهم الأب عبدالله. وأوّل عمل قاموا به، بعد ذلك، اختيارهم رئيسًا عامًّا جديدًا لا يقلّ فضيلة وعلمًا وتدبيرًا عن الأب العامّ السابق. هو الأب المدبّر جرمانوس فرحات الحلبيّ الذي كانت له مكانة كبرى، ليس في الرهبانيّة فقط، بل في الطائفة وفي الشرق بكامله، نظرًا لعلمه الواسع، وفضيلته الراسخة، وصلاته المتواترة، وإدارته الرشيدة، ومواعظه السديدة. وكان فرحات يومئذ مقيمًا في مدينة حلب الشهباء لفرضٍ يتعلّق برهبانيّته. فأرسلوا على الأثر في طلبه ليحضر فورًا إلى اللويزة. فحضر إلى الدير المذكور وعقدوا مجمعًا رهبانيًّا، وانتخبوا فيه الأب المدبّر جرمانوس فرحات الحلبيّ رئيسًا عامًّا عليهم. وكان ذلك في العاشر من شهر تشرين الأوّل من العام ذاته (١٧١٦). ثمّ انتخبوا الآباء المدبّرين، الذين انتخبوا، بدورهم، رؤساء الأديار في كلّ الرهبانيّة. وساروا جميعهم برئاسة أبيهم العامّ الجديد فرحات سيرًا حسنًا مشكورًا، وفقًا للطريقة الرشيدة التي علّمهم إيّاها رئيسهم السابق عبدالله قراعلي في عهد رئاسته العامّة المثاليّة كما رأينا.

المطران قراعلي في الشام

وفي سنة ١٧١٨، وما قبلها، حصل خلاف في الشام على كنيسة مارونيّة تدعى كنيسة سيّدة العريانة بين أبناء الطائفة ورهبان الفرنسيسكان الذين كانوا، منذ سنين، يقومون بخدمة نفوس الموارنة في الكنيسة المذكورة. فانتدب، البطريرك يعقوب عوّاد، سنة ١٧١٩، المطران عبدالله قراعلي لحلّ هذا المشكل المستعصي، واستخلاص الكنيسة من يد الإفرنج، على الرغم من احتجاج المطران سمعان عوّاد أبن أخي البطرك عوّاد على إرسال أسقف غيره بهذه المهمّة، لأنه كان هو مطران الشام.

فسافر المطران عبدالله إلى الشام على ضعف جسمه وانحطاط قواه. وتمكّن بما كان معروفًا عنه من حكمة وغيرة وتجرّد، ورأي صائب في معالجة الصعاب المتنوعة، من تذليل تلك الصعوبات، وحلّ ذلك المشكل. فنال بغيته، وحقّق للرؤساء رغبتهم، ونال أبناء الطائفة مطلبهم، واسترجع الكنيسة إليهم، وقام بخدمتها وخدمة النفوس، بكلّ غيرة واندفاع. وبقي في الشام مدّة ثمانية أشهر يعمل بجدّ ومحبّة وفطنة ونشاط حتّى أحبّه كلّ الناس على اختلاف مذاهبهم. وكان يلقي عليهم الرياضات الروحيّة، والتعاليم الدينيّة. ثمّ اهتمّ بأن يرسل إليهم رئيس الرهبانيّة بعده القسّ فرحات. فأخذ هذا يعظ كلّ أحد وعيد، ويؤسّس الأخويّات، وهو

أوّل من أجرى عادة الوعظ كلّ يوم جمعة في الصوم الكبير عن الآم المسيح، وأوّل من أنشأ في الشام شركَتي الورديّة وثوب السيّدة. وكانت عناية المطران عبدالله بموارنة دمشق من أكبر أسباب الاضطهاد الذي ثار عليه في سنة ١٧١٩، وتحمّل فيه من الإهانة والتشنيع والغرامة ما لا يتحمّله إلاّ الراسخون في فضيلة الصبر والاحتمال.

الضيق على الرهبان وأديارهم

ضيَّق البطريرك يعقوب عوّاد على الرهبان الموارنة بمنعهم من التجوال لأجل التبشير، وعمل الرسالة والرياضات، فزاد في ضيقهم ضيقًا لانحباس حسنات المؤمنين عنهم، واضطرارهم لإخلاء أديارهم في الشمال مثل دير مار أليشع، ودير مار أنطونيوس قزحيّا في سنة ١٧٢٦. وسبب ذلك أنّ والي طرابلس، لمّا علم بأنّ الرهبنة أخفت البطريرك عوّاد عن عساكره في دير مار أليشع ودير قزحيّا، أثقل هذين الديرَين بالضرائب الفاحشة والغرامات غير العاديّة، واضطرّ الرهبان إلى إخلائهما، وتوسيع بقيّة أديارهما لإيواء رهبانهما فيها.

البطريرك الجديد يوسف الخازن

ولمّا توفيّ البطرك يعقوب عوّاد في ٩ شباط سنة ١٧٣٣، رشَّح الأحبار والأعيان المطران عبدالله خلفًا له، وكاد أن يتمّ جلوسه على كرسيّ البطريركيّة المارونيّة الأنطاكيّة. وتفصيل ذلك أنّ مطارنة الطائفة، وكان عددهم آنذاك خمسة عشر مطرانًا، اجتمعوا في دير مار شلّيطا مِقْبِس– حيث توفيّ البطريرك عوّاد ودُفِن– لإقامة بطريرك جديد "بقرعة قانونيّة، وعلى أن لا يحضر معهم أحد من المشايخ أو العوامّ، وأن يتمّموا المجمع في دير مار سركيس ريفون". ولمّا ابتدأوا في إجراء القرعة سرًّا، مال خمسة منهم إلى المطران قراعلي، وستّة "إلى المطران الياس محاسب. وأمّا الأربعة الباقون فتفرَّقت قرعتهم وحصل الاختلاف، فنهض المطران يوسف درغام الخازن، مطران غوسطا، مخاطبًا إيّاهم بأنّ عملهم منافيَ روح الربّ [...]، وأنّه لا يوافقهم على هذا الاختلاف. بل إنّه مستعدّ لأن يطيع أيّ مَن انتخبوه بطريركًا ولو كان راهبًا ساذَجًا. فاعتبر الجميع كلامه، وهتفوا نحوه قايلين: أنت بطريركنا. وحملوا به إلى الكنيسة، وساموه بطريركًا"[١].

المطران عبدالله والإصلاح في الطائفة

إنّ المطران عبدالله، بعد أن صار أسقفًا مارونيًا بعيدًا عن أمور الرهبنة التي نجح كثيرًا فيها، عمل جاهدًا على مداواة مساكنة الرهبان والراهبات في دير واحد، كما كانت العادة القديمة. وهو، لكثرة ما كتب واستكتب، ورفع من العرائض بهذا الخصوص إلى المجمع الروماني المقدّس، شارحًا فيها ضرورة فصل الأديار المزدوجة عن بعضها بعضًا، نال رغبة قلبه وتحقّق ما تمنّاه لخير الرهبانيّات، وذلك في انعقاد المجمع اللبنانيّ في دير سيّدة اللويزة سنة ١٧٣٦ برئاسة القاصد الرسوليّ العلاّمة يوسف السمعاني، بأمر من قداسة البابا اكليمندوس الثاني عشر.

[١] [سعاده، الأب إغناطيوس م. ل.، "قرونيقون البطريرك بولس مسعد" في **خماسيّة الأب إبراهيم حرفوش**، جونيه، منشورات الرسل، ٢٠١٠، ص ٦٦– ٦٧].

وفي أوائل سنة ١٧٢٢، عندما دار الحديث بجديّةٍ على الصلح بين المطران عبدالله والبطريرك يعقوب عوّاد، اشترط هذا المطران الجليل على السيّد البطريرك أن يترك للأساقفة حرّيّة تدبير أبرشيّاتهم القانونيّة، حسب سلطاتهم الشرعيّة. وأن لا يرسم مطرانًا إلا بمشورتهم الصالحة. وأن لا يقضي بأمرٍ ثقيل يخصّ الطائفة إلّا بمشورة المطارنة. وأنْ لا يحلّ أمرًا ثقيلًا رسمه البطاركة أو مجمع المطارنة إلّا بمجمع المطارنة. وأنْ يوزّع الكتب والحسنات الواردة إليه من الكرسيّ الرسوليّ، حسب الأوامر التي يتلقّاها من هذا الكرسيّ الرسوليّ. وإذا حكم المطران على شخصٍ من رعاياه، فلا يجوز له أن يسمع دعواه إلّا بحضور مطرانه، أو بعلمه، إلخ.

وهنا لا بدَّ لنا من ذكر رسالة هامّة بعث بها إلى الحبر الأعظم قنصل فرنسا بصيدا السيّد دي كريموي ، وهي مؤرَّخة في ٢٣ أيلول سنة ١٧٢٢، يشهد فيها شهادةً حسنة بالمطران عبدالله قراعلي، وتجرّده، وما توخّاه من الإصلاح الطائفيّ. وقد نشرتها مجلّة المصوِّر (illustration) الفاتيكانيّة[1] الصادرة سنة ١٩٣٦، وقالت ما ترجمته:

أيّها الأب الأقدّس...

"تجدون بطيّه كتابًا قدَّمه المطران عبدالله إلى قداستكم. إنّي شاهد، أيها الأب الأقدس، أنّ هذا الحبر الجليل قَبِلَ الصلح من صميم قلبه. بل إنّه سهَّل سبيله ضدّ مصلحته الخاصّة، وعدّه صلحًا كاملاً ثابتًا. وما ذكره في كتابه من العيوب فلا يمسّ بشيء هذا الصلح. وما أَقْدَمَ على ذكرها إلّا تلبيةً لواجب ضميره. هذه العيوب متغلغلة منذ زمن بعيد في الطائفة، ولا يسعني أن أشكّ بحقيقتها، ما دام هذا الحبر قد جرؤ على تأكيد وجودها لقداستكم. فهو معروف كأعظم أحبار هذه البلاد قداسةً وعلمًا، وسيرته طاهرة صالحة، وغيرته شديدة على ديانتنا المقدّسة، وألف ميزة حميدة يتحلّى بها، وقد جَعَلَتْهُ موضوع احترام جميع أهل الصلاح.

"تأكّدوا أيّها الأب الأقدس، أنّ الحقيقة وحدها تدفعني إلى أداء هذه الشهادة التي لا ينكرها إلا حسّاده وأعداؤه. فقد تحرّيت عن سيرته وعن أعماله فلم أجد فيها إلّا ما يحملني على زيادة الاعتبار لشخصه. وأرى من واجبي، أيّها الأب الأقدس، أن أخصّه بالثناء على ما بذله بارتياح من الجهود، وما قدَّمه من التسهيلات للوصول إلى الصلح المنشود، ولإتمام هذا العمل الحميد، طبقًا لرغبات قداستكم... ولم يعدْ أمامي سوى رفع الرجاء إلى قداستكم بكلّ خضوع لتشملوني ببركتكم الرسوليّة، وتروني سعيدًا لو استحققتها باحترامي العميق لشخصكم المعظَّم، وبمواصلة السهر على مصالح الكرسيّ الرسوليّ، مؤكّدًا أنّي باقٍ، حياتي كلّها، في خدمتكم والسلام.

ولدكم

وخادمكم الكلّيّ الخضوع

كريموي

وفي آواخر أيلول سنة ١٧٢٩، كتب الآباء المدبّرون رسالة إلى رئيسهم العامّ الموجود في رومة الأب ميخايل إسكندر الإهدنيّ، وهي جواب على مكتوبه إليهم الذي يقولون فيه ما حرفيّته:

[1]. Cf. illustration vaticana 1936.

"ذكرتم سابقًا أنّه عمّا قريب جدًّا يصل أمر سامٍ إلى السيّد البطريرك في قيام مجمع طائفيّ. ونحن وأكثر أبناء الطائفة منتظرين هذا كثيرًا جدًّا، لأنّ الجميع راغبون في هذا المجمع البلديّ الذي ينتج عنه خير كبير للطائفة" ومعالجة دقيقة لهذه الأمراض الرديئة التي عدّدناها أعلاه.

ولاشكّ بأنّ الأب العامّ ميخايل اسكندر الإهدنيّ عمل في رومه حثيثًا، مع صديقه العلاّمة يوسف السمعاني الشهير، على تحقيق هذا المجمع المنظور ، وذلك بناءً على تحريضات وعرائض المطران عبدالله قراعلي، وتلميذه الأب العامّ توما اللبّودي.

المجمع اللبنانيّ

وبالواقع حضر القاصد الرسوليّ العلاّمة الماروني يوسف سمعان السمعاني إلى دير سيّدة اللويزة، حاملًا معه كلّ التفويضات اللازمة والبراءات البابويّة لعقد مجمع طائفيّ هو دستور المجمع اللبنانيّ الشهير.

ولمّا اعتمد الجميع على عقد المجمع اللبنانيّ في اللويزة، أَشهَرَ البطريرك والقاصد الرسوليّ دعوةً عامّةً إلى كلّ المطارين، والأساقفة، والمُرسَلين، والخوارنة، ورؤساء الأديار، والكهنة، وباقي أهل الإكليروس والرهبان، مع حضرة المشايخ، وسائر الشعب. والدعوة مؤرّخة في ٢٩ أيلول ١٧٣٦.

ابتدأت جلسات المجمع اللبنانيّ يوم الأحد في ٣٠ من أيلول، ودام المجمع ثلاثة أيّام متتابعة لغاية اليوم الثاني من تشرين الأوّل سنة ١٧٣٦، فعُقدت في أثنائها ستّ جلسات. وعند الانتهاء، وضع جميع الأعضاء المشتركين تواقيعهم وأختامهم في آخر كتاب المجمع اللبنانيّ[١].

بعد الانتهاء من عقد المجمع المذكور، جاء وقت التطبيق، وتأسيس دير خاصّ بالرّاهبات اللبنانيّات في دير مار الياس الرأس القائم فوق دير سيّدة اللويزة، على رابية جميلة تشرف على البحر، وعلى العاصمة، وبلاد كسروان. فاتّفق القاصد الرسوليّ، والمطران عبدالله، والأب العامّ اللبّودي، على إنشاء دير قانونيّ خاصّ بالراهبات، فقبلت الرهبنة المهمّة، وباشرت سنة ١٧٤٠ لقبول طلبات الترهّب فيه، بحسب قوانينها، مستدعية لإرشادهنّ ثلاث راهبات من دير حراش، وترأّست عليهنّ الراهبة الأمّ دومنينا من بلدة درعون. وقد قام بتنفيذ القرارات المجمعيّة وأحكام الدستور الجديد العلاّمة القاصد الرسوليّ يوسف السمعاني لعلوّ مقامه، وسموّ سلطانه، ومعارفه الكثيرة، ومقدرته العلميّة. وكان أوّل قرار مجمعيّ الإصلاح الرهبانيّ، أي تحقيق القرار القاضي بفصل أديار الرّهبان عن أديار الراهبات استئصالًا للمساوئ والأخطاء التي كان يشكو منها المطران عبدالله قراعلي في شتّى كتابته إلى المجمع المقدّس.

[١]. يذكر الأباتي بطرس فهد في كتابه المشار إليه سابقًا، ص ١١١، ونقلًا عن "سجلّات اللويزة الرسميّة القديمة، أنّ هذا الدير العامر تكلّف على المجمع اللبنانيّ وأعضائه البالغ عددهم فوق المئة، سبعة الآف قرش ذهبًا، ما عدا ما أنفقه من مصاريف متنوّعة على مكوث العلاّمة السمعانيّ في دير اللويزة وضيافته وتنقلاّته وما إلى ذلك". ولمزيد من التفاصيل حول عقد المجمع اللبنانيّ، وحضور السمعانيّ إلى دير سيّدة اللويزة، والاستقبال الذي جرى له، والدعوة العامّة إليه التي "أشهرها" البطريرك والقاصد الرسوليّ، وموظّفيه، والآباء الذين حضروه، وغير ذلك، يُراجَع كتاب الأباتي فهد نفسه، ص ١١٠- ١١٦.

وغنيّ عن الإسهاب أنّ الأب عبدالله قراعلي، عندما صار مطرانًا، عُرضت عليه قضيّة تسليمه دير راهبات حراش لتنظيمه وتدبير راهباته، وتكوين قانون خاصّ بهنّ، فتريّث أوّلًا إلى أن تعهّد له السيّد البطريرك يعقوب عوّاد، ومشايخ آل الخازن، والراهبات أنفسهنّ، بحرّيّة العمل ليكون الإصلاح الرهبانيّ عندهنّ كاملًا غير منقوص.

ولم يمضِ على تسلّمه دير حراش وقت طويل، حتّى وضع لراهباته قانونًا عُرف ب"قانون دير مار أنطونيوس حراش للرّاهبات"، آملًا في تعميمه على كلّ المؤسّسات الرهبانيّة المختصّة بالراهبات.

وجدير بالذّكر انّ الاصلاح الرهبانيّ الذي أجراه الاب عبد الله، إذ بدأ به راهبًا ثمّ مدبّرًا ثمّ رئيسًا عامًّا ثمّ مطرانًا ، مدّة ١٦ سنة قضاها في رهبنته هو ومناصروه الكثيرون، صادف عقبات كأداء ومشاكل صعبة، ومطامع لا تُحصى. ذلك لأنّ الأديار كانت عهدئذ واقعة تحت سيطرة الحكّام، والعائلات الواقفة لها والأساقفة، وخاصّة تحت رعاية السيّد البطريرك الذي كان الكلّ في الكلّ.

في الأديار الواجب تنظيمها حسب القرارات المجمعيّة

تحمّل القاصد الرسوليّ يوسف السمعاني، والمطران عبد الله قراعلي، والأب العامّ اللبّودي الحلبيّ، الكثير من الأتعاب والجهود في سبيل فصل الأديرة المزدوجة، وتنظيمها، ووضع القوانين الثابتة لها. ذلك لأنّه كان للحكّام حقّ الجباية على الاديار، لانّهم يحمونها كما يدّعون من كلّ عدوان، ويحافظون عليها وعلى رهبانها وراهباتها. وكان للأساقفة حقّ الولاية على غالبيّة الأديار، لانّهم مترئسون عليها ويدبّرون شؤونها، وكان للعائلات الواقفة الأديار حقّ الإشراف والمداخلة والانتفاع ليحصلوا على بعض ما يطلبون منها.

علاوة على ذلك، كانت هذه الأديار القديمة التي سنتكلّم عليها، مثقلة بواجبات الضيافة، ودفع الأموال الأميريّة، والأطماع الحكوميّة. ولهذه الأسباب المتعدّدة كان الرهبان والراهبات مضطرّين للقيام بأشغال الحقول، وإقامة موسم الحرير، "وشيل القزّ"، ليتمكنّوا من القيام بأَوَدِ حياتهم، وترميم أديارهم، واستقبال ضيوفهم عند قدومهم إلى الأديار.

لا شكّ أنّ المطران عبد الله كان شاعرًا بالخطورة والصعوبة، وبكثرة المشاكل التي تحول دون تنفيذ عمليّة الإصلاح الرهبانيّ التي يريدها الكرسيّ الرسوليّ لخير الرهبان أنفسهم، وازدهار أديارهم. فلأجل ذلك كوّن المطران عبد الله لجنة رسميّة عالية الشأن لتتولّى معالجة هذه العراقيل، وهي مؤلّفة من القاصد الرسوليّ يوسف السمعانيّ نفسه، ومن المطرانين طوبيّا الخازن صاحب الكلمة المسموعة لدى المشايخ والحكّام، والمطران إغناطيوس شرابيّه تلميذ المطران عبد الله الوفيّ وصاحب الرأي السديد في هذا الأمر، والأب العامّ توما اللبّودي صاحب الهمّة العالية، والفطنة النادرة، والمقدرة الادبيّة والماليّة معًا. والغاية من كلّ ذلك إقناع المشايخ، وأصحاب الوقوفات والأساقفة، بضرورة الإصلاح المنشود؛ أو وقوفهم على الحياد ليستطيع المسؤولون القيام بواجباتهم الرسوليّة تنفيذًا لهذا المشروع الخطير، أي الإصلاح الرهبانيّ.

وفضلًا عن ذلك، حاول المطران عبد الله إقناع سكّان الأديار المزدوجة ورؤسائها، بفائدة هذا المشروع الروحيّ والأدبيّ والرهبانيّ، وبالخضوع التامّ لأوامر الكرسيّ الرسوليّ. ولنجاح هذه المهمّة اقترح سيادته طريقة عمليّة فعّالة تقوم بفرز جناح خاصّ في كلّ دير مزدوج، مستقلّ عن المباني الديريّة، إنْ أمكن.

أمّا الأديار الصغيرة التي فيها عدد قليل من الراهبات أقلّ من أعداد الرهبان، فقد عزم المطران عبد الله أن يوعز الى رئيس عامّ رهبنته الأب توما اللبّودي أن يشيد دير مار الياس الرأس، السالف الذكر، لتقيم فيه الراهبات المنفصلات من الأديار المزدوجة، وهكذا يتمّ الإصلاح الرهبانيّ المنشود. وبناءً على ذلك، باشر سيادته بإصلاح الأديار الواقعة في أبرشيّته وأبرشيّة زميله المطران طوبيّا الخازن، والتابعة لفرعَي مشايخ أبي نوفل الخازن وأبي صعب الخازن، المؤيّدين لأفكاره وإصلاحاته الرهبانيّة. والأديار المزدوجة التي تولّت اللجنة المذكورة أعلاه إصلاحها هي: دير مار الياس الرأس في منطقة كسروان، دير مار جرجس الروميّة بالقليعات، دير سيّدة الحقلة في دلبتا، دير مار عبدا هرهريا في غزير، دير عين ورقة في غوسطا، دير مار أنطونيوس في بقعاتة كنعان، دير مار موسى في بلّونة، دير مار شلّيطا في غوسطا.

والخلاصة، من هذا، أنّ المغفور له المطران عبد الله قراعلي كان السند القويّ للعلّامة يوسف السمعاني لتحقيق أوامر الكرسيّ الرسوليّ المقدّس الذي بذل، كما رأينا، الجهود الجبّارة في سبيل إيصالها إلى الكمال، وكان الوسيط الوحيد بين السمعاني والسيّد البطريرك وإخوته الخوازنة ليجعلهم يقبلون بتنفيذ القرارات المجمعيّة الآيلة لخير الطائفة، وتنظيمها، وتحقيق آمال الرهبانيّة التي عملت حثيثًا في هذا الخصوص. وكان المطران عبد الله رجلًا تقيًّا متشرّعًا، ومحيطًا بكلّ أحوال طائفته ورهبنته التي كان يحبّها كثيرًا، وراغبًا في إيصالها إلى الكمال مهما كلّفه ذلك من تضحيات وبذل جهود.

في المدارس التي افتتحها المؤسّس عبدالله قراعلي [ورهبنته من بعده]

صحيح أنّ المؤسِّس المطران عبدالله قراعلي الحلبيّ قاوَمَ، في بدء التأسيس، إنشاء المدارس والرسالات، لعلمه اليقين أنّ الرسالة تتطلّب رجالًا أكفّاء علماء، وأموالًا كثيرة، ولم يكن لديه من الإثنين شيء يُذكَر. لكنّه لمّا رأى رهبنته قد نمت وازدهرت، وأصبح فيها رجال علماء ووعّاظ مشهورون، ولديهم المعاش الكافي من أتعاب إخوانهم الرهبان الكادحين الذين يقومون بأعمال الصناعة، والزراعة، والبناء، والأعمال المنزليّة، دفع بهم، اثنين فاثنين، إلى ميدان العمل الرسوليّ الروحيّ والعمليّ، وسعى في فتحِ المدارس في الأديار وخارجًا عنها، وأرسل الوعّاظ إلى القرى والمدن لعمل الرياضيات و الرسالات الروحيّة التي كان الشعب الماروني متعطِّشًا لسماعها.

١. وأوّل مدرسة افتتحها كانت مدرسة مارت موره بإهدن. وكان هذا الدير الصغير قد وهبه إيّاه السيّد البطريرك العظيم إسطفانوس الدويهي سنة ١٦٩٥، في مطلع التأسيس المبارَك، حيث استقرَّ فيه المقام مع رفيقيه الغيورَين الأب حوّا والأب البتن الحلبيَّين.

ففي صيف تلك السنة، جمع الأب قراعلي حوله أحداث القرية تحت شجرة كبيرة من الجوز قائمة شرقيّ الدير المذكور، وأخذ يلقّنهم مبادىء الدين والأخلاق والتعليم المسيحيّ والعلوم العربيّة، ويدرّبهم على خدمة القدّاس الإلهيّ، وإقامة

الحفلات البيعيّة، والإشتراك في الصلوات الخورسيّة السريانيّة. فانتعشت تلك الناحية المنعزلة بترانيمهم وصلواتهم وأعمالهم الروحيّة والعلميّة، وصار الناس يتردّدون إليها، ويشتركون معهم بالحفلات الروحيّة، ويفرحون مع أولادهم الذين يمتنعون عن ارتكاب أيّ مُنْكَر، متشبّهين بمثل هؤلاء الرهبان الأتقياء الفضلاء.

ولمّا زحف الشتاء بثلجه الكثيف وصقيعه المضرّ، انحدر الأهلون إلى بلدة زغرتا، بلدتهم ومشتاهم ومحلّ سكناهم في الشتاء. فلحق بهم الأب عبدالله قراعلي مع أولاده التلاميذ الذين كان يحبّهم ويربّيهم في المستقبل. فأفرز له المطران الغيور جرجس بنيمين الزغرتاويّ، راعي الأبرشية هناك، مكانًا واسعًا دافئًا لقيام مدرسة حديثة، ووقف لها أرزاقًا كافية، ودعاها باسم القدّيس يوسف البتول، وهي الآن قائمة تنطق بفضل المؤسّس. وهذه المدرسة الصغيرة الأولى كانت نواةً لإنشاء مدارس مارونيّة أخرى كثيرة بجانب الكنائس والأديار، وتحت ظلال أشجار السنديان والجوز، وما إلى ذلك.

٢. عندئذ غار أهالي بشرّاي من جارتهم إهدن، فقدّموا للأب عبدالله ديرًا في وادي قاديشا المقدّس، فأخذته الرهبانيّة شاكرة، وتولّت توسيعه وترميمه وتنظيمه، وقد اشترطت البلدة على الرهبنة أن تفتح فيه مدرسة لتعليم الأحداث، وهكذا صار. وكان الأب قراعلي يتولّى تعليمهم وتهذيب أخلاقهم. وكثير من أبناء البلدة دخلوا الرهبنة ليترهّبوا أسوةً برهبانها الفضلاء.

٣. وثالث مدرسة كانت في بلاد الشوف. فقد توالت على الأب عبدالله طلبات وتقادم مُغْرِية ليفتح لهم مدرسة في بلاد الشوف وذلك في بلدة رشميّا، باسم القديس يوحنّا الرسول. فوقف أصحاب المقام ديرهم هذا إلى الرهبانيّة لتقيم فيه مدرسة مجانيّة يعلّم فيها أبناءُ الرهبنة أحداثَ البلدة حيث لم تكن توجد مدرسة البتّة.

٤. ورابع مدرسة، كانت في زوق مصبح حيث تقدّم الراهب اغناطيوس سلهب الحاقلاني المصبحانيّ من الأب العامّ عبدالله قراعلي، و قدّم للرهبنة ديره و مدرسته و كلّ أوقافها الكثيرة.

٥. وخامس مدرسة أنشأتها الرهبنة، في عهد رئاسة الأب العامّ عبدالله قراعلي، كانت في الشمال، في دير مار أنطونيوس قزحيّا المشهور منذ القديم، وفيه محبسة مشهورة، وقد أقام الأب العامّ ديرًا كبيرًا هناك، ومدرسة مجانيّة يتعلّم فيها أولاد البلدة وعربة قزحيّا، والمزارع المجاورة لدير مار أنطونيوس.

٦. وسادس مدرسة أنشأتها الرهبانيّة في سنة ١٧١٢ في دير مار بطرس كُرَيْم التين، تحت بلدة بيت شباب، بالمتن.

٧. ولمّا تملّكت الرهبانيّة دير سيّدة طاميش في المتن، الذي أسّسه المطران جبرايل البلوزاوي أسقف حلب في عهد البطريرك إسطفان الدويهي القدّيس، وفي ولاية الأمير أحمد المعنيّ، خصّصت راهبًا متعلّمًا من أبنائها ليقيم مدرسة حول الدير يعلّم فيها أحداث القرى الكثيرة المجاورة وهي المطيلب، وديك المحدي، ومزرعة يشوع، وحارة البلّانة، وغيرها.

٨. ولمّا دخل دير مار الياس شويّا، سنة ١٧٢٧، في حوزة الرهبانيّة، أنشأت فيه مدرسة مجانيّة ليتعلّم فيها أولاد بكفيّا، وضهور الشوير، وما حولهما.

٩. كذلك لمّا تملّكت الرهبانيّة دير سيّدة مشموشة في جنوب لبنان، من المطران سمعان عوّاد، أقامت مدرسة مجانيّة في جانب الدير لتعلّم فيها أحداث بلدتَي بكاسين، ومزرعة مشموشة، وغيرهما.

١٠. وفي سنة ١٧٥٢ شادت الرهبانيّة أنطوش دير القمر في بلدة الأمير، دار الحكم، وأقامت فيه مدرسة لتعليم الأولاد، وهذه المدرسة تحوي، ما عدا أولاد الطائفة المارونيّة، أحداث الأمراء والدروز أيضًا، وصار إحسان من الأمراء والستّات وأهل البلدة لمساعدة الرهبان في العمار المذكور، وذلك باجتهاد المغفور له الأب متّى الحكيم الحلبيّ الذي كان موكلًا بإدارة الأنطوش والمدرسة.

١١. وفي هذه السنة نفسها (١٧٥٢) افتتحت الرهبانية أيضًا مدرسة في قرية عجلتون لتعليم الأولاد، وعمّرت فيها كنيسة، وبجانبها ديرًا صغيرًا لسكنى الرهبان، وكان ذلك في حكم المشايخ الخوازنة.

التعليم ونشر الرسالات

بعد إقامة هذه المدارس في لبنان، تخطّى الرهبان إلى التعليم ونشر الرسالات في الخارج: بيروت، وعكّا، واللاذقيّة، وجزيرة قبرص، ومصر، والسودان. وفي سنة ١٧٣٧، كتب الأب العامّ توما اللبوّدي إلى المطران جبرايل حوّا في رومه، يخبره أنّ تلاميذ المدارس الرهبانيّة بلغ عددهم ثلاثمائة تلميذ، ممّا يدلّ على أنّ الرهبان كانوا يهتمّون في سبيل فتح المدارس المجانيّة لتعليم الأحداث.
وكما عمل الأب العامّ عبدالله قراعلي في فتح المدارس لتعليم الأولاد، وتبعه الرؤساء خلفاؤه بعده، كذلك عمل في موضوع الرياضات والرسالات الروحيّة في لبنان والخارج.

أمّا الرسالات الروحية التي انشأتها الرهبنة فكانت منتشرة منذ أوّل نشأة الرهبانيّة في كلّ أنحاء لبنان، لأنّ الشعب اللبنانيّ كان متعطّشًا لسماع كلمة الله. وكان الرهبان، في أوائل الرهبنة، يتجوّلون بين القرى والمدن، ويلقون المواعظ، ويؤسّسون الأخويّات، ويعملون الرياضات والزيّاحات. ومعروف ومشهور زيّاح الوردية الذي كانوا يحتلفون به في دير سيّدة اللويزة، حيث كان يتقاطر إلى هناك، للاشتراك به، أناس عديدون من أماكن بعيدة، حتّى من بيروت ونواحٍ أخرى، فضلًا عن أهالي الأزواق الثلاثة: زوق مصبح، وزوق مكايل، وزوق الخراب، والذين كان عددهم نحو ستمائة شخص في تلك الأعوام، وهذا عدد كبير نظرًا لتلك الأيّام.

وكان مشهورًا قيام الرياضة في بلدة كفرذبيان، وفي ساحل علما، وفي قاطع كسروان، وفي أبرشيّة بيروت، وطرطوس وعكّا ومرسين في الشمال. فقد ذكر المؤرّخ الأب لويس بليبل[١] "أنّ الرهبان الحلبيّين اللبنانيّين افتتحوا رسالة في طرطوس، وظلّوا مثابرين فيها على خدمة الرعيّة زمنًا طويلًا، وفي ثغر مرسين المجاور له، وكلاهما في بلاد الأناضول التابعة للدولة التركيّة، إلى أن حلّ مكانهم كاهن علمانيّ من حلب بأمر السيّد البطريرك".

والجدير بالذكر أنّ العلّامة السمعاني أشار إلى الأب العامّ توما اللبّودي أن يرسل رهبانًا ليفتح رسالة في عكّا لعدم وجود كهنة هناك، ولا رهبان يقومون بالخدمة الروحيّة، وعمل الرياضات. وقد استجاب الأب العامّ الطلب، وأرسل راهبَين إلى عكّا هما "القسّ إسطفان والقسّ نيلوس لأجل عمل الرسالة"، وفتحا مدرسة هناك بناء على طلب المطران جبرايل عوّاد رئيس الأبرشيّة.

[١] المجلّد الأوّل من تاريخ الرهبانيّة، ص ٣٠٩، والثاني ص ٦٣٥.

ونشرت الرهبانيّة رسالة في سوريا في أبرشيّة اللاذقيّة، وحلب، كما يُستبان من رسالة بعث بها الأب العامّ ميخايل إسكندر الإهدنيّ إلى المجمع المقدّس سنة ١٧٣٤[١].

وفي سنة ١٧٤٥، أرسلت الرهبانيّة إلى مصر، إلى ثغر دمياط، أحد رهبانها الغيورين، الأب موسى هيلانه الشاميّ ليخدم نفوس الموارنة الذين كانوا يسافرون إلى هناك طلبًا للرزق، وكسبًا للعيش الحلال. ومن هناك امتدّت الرسالة المارونيّة إلى كلّ أنحاء القطر المصريّ.

في الإصلاح الّذي قام به المطران عبدالله قراعلي

درس الأب عبدالله قراعلي الحلبيّ الشريعة المسيحيّة على الخوري بطرس التولاوي العالم الشّهير الّذي كان وكيل مطران حلب حيث أنشأ معهدًا، تعلّم فيه المؤسّسون الحلبيّون جميعهم: حوّا وقراعلي والبتن وفرحات، قبل مجيئهم إلى وادي قنّوبين اللّبنانيّ في الشمال للترهّب، ولتأسيس رهبنة جديدة حديثة منتظمة على قواعد الرّهبانيّات الغربيّة.

وكان الرؤساء الروحيّون، في عهد الأب العامّ قراعلي، يمارسون الأحكام القضائيّة في الأحوال الشخصيّة وما يتعلّق بها من القضايا الدّينيّة. ولمّا ارتقى الأب عبدالله قراعلي، رحمه الله، إلى الدّرجة الأسقفيّة، سنة ١٧١٦، كُلّف بممارسة القضاء المسيحيّ. فشعر بحاجة ماسّة إلى كتب قانونيّة، وموسوعات شرعيّة، ليستند إليها في إصدار أحكامه المتنوّعة. ولم يكن وقتئذٍ يوجد إلّا كتاب الهدى المطبوع سنة ١٧٣٥ في حلب، وكتاب النّاموس لابن العسّال القبطيّ المطبوع في مصر في القرن الثالث عشر، وكتاب الشّرائع الرّومانيّة المأخوذ عن الأباطرة قسطنطين الكبير، وتيودوسيوس، ولاون، ويوستنيانوس الكبير، وتحديدات المجامع العامّة، وغيرها القليل.

فوضع المطران عبدالله دستورًا اعتمدته كلّ الطّوائف المسيحيّة في لبنان، وبقي المرجع الأمين الوحيد زهاء قرنين متواصلَين، يرجع إليه المتخصّصون بمعرفة التّقاليد والمبادئ الشرعيّة، سمّاه "مختصر الشّريعة". ثمّ شرحه وزاد عليه أمورًا كثيرة ضروريّة لحلّ المعضلات القانونيّة. ثمّ وضع كتابًا آخر هو "الفتاوى"[٢]. ومن ثمّ أخذ يمارس وظيفة القاضي الماروني في أبرشيّته أوّلًا، بكفاءة ونزاهة ممزوجتَين بحنان، فعدَّه الجميع حُجَّة زمانه في التّشريع المدنيّ، ومحجّة المتقاضين من كلّ ملّة ومذهب. وكان يقصد إليه من أطراف البلاد، ليس المسيحيّون فقط، بل المتخاصمون من الأمم الغربيّة أيضًا، كما قال عنه تلميذه المخلص الأبّ العامّ توما اللبّودي في ترجمة حياته الّتي وضعها عنه هو نفسه.

وممّا هو جدير بالذكر أنّ المطران عبدالله أفاد رهبانيّته في هذا الحقل القانونيّ في ما يخصّ معاملات الأديار للحفاظ على حقوق الرّهبنة، وخاصّةً دير مار الياس شويّا، ضهور الشوير. فهذا الدّير شهد خلافًا كبيرًا بسبب المجال الضيّق القائم بين الديرَين المارونيّ

---

[١] راجع الأب بليبل في المجلّد الأوّل من تاريخه الرهبانيّ، ص ٣٤٤، وراجع الأب بولس قرألي في **اللآلئ في حياة المطران عبدالله قرألي**، مصر، المطبعة العصريّة، ١٩٤٦؛ القاهرة، مطبعة لا باتري، ص ٦٢٩.

[٢] راجع عنه القضاء الماروني للمونسنيور يوسف زياده كاتم أسرار البطريركيّة المارونيّة، طبعه في جونيه سنة ١٩٢٩، ص ٥. وأنظر اللآلئ ص ٦٤٦.

والأرثوذكسيّ. وتسلَّم المطران عبدالله قضيّة رهبنته. وأمّا المطران إبريهام الأرمنيّ، القاطن في دير الكُرَيْم بغوسطا الّذي بيع إلى الآباء المرسَلِين الكريميّين (بعد تأسيسهم لجمعيّتهم مباشرة)، فتسلّم قضيّة دير الرّوم الأرثوذكس. وكان كلاهما قاضيين من قبل الحكومة.

اجتمع القاضيان الماروني والأرمنيّ، واطّلعا على كلّ الأوراق والصّكوك، وتبصّرا مليًّا في المشكل منذ أوّله إلى آخره. وبعد الرويّة وأخذ شهادات الشّهود، أصدرا حكماهما وكتباه على نسختين: الواحدة بخطّ الشّاعر الحلبيّ الخوري نقولا الصّايغ رئيس الرّهبان الشّويريّين، وكان هذا تلميذ المطران فرحات، وسلّموها إلى رهبان الموارنة. والثّانية بخطّ الأبّ يوسف قراعلي المدبّر العامّ الماروني، وسلّموها لرهبان الرّوم الأرثوذكس الّذين كانوا يومها يسكنون الدير المذكور.

على أنّ رهبان الرّوم لم يرتضوا بالحكم، بل أقاموا دعوى لدى الحكّام المدنيّين. وفي اليوم نفسه أقاموا جدارًا فتحوا بابًا لهم فيه، على أرض هذا المجال المُختَلَف عليه. فأصبح درب الموارنة (الزّاروب) مجالًا للرّوم الأرثوذكس، ومرمى لثلوج ديرهم ولأمطاره، ومطلًّا لنوافذهم الدّيريّة. ولم يكتفوا بذلك بل أجبروا رهبان الموارنة على سدّ شبابيكهم المطلّة على الزّاروب، بحُجّة أنّ هذا الزّاروب هو ملكهم. ولمّا قاضاهم الرّهبان، لجأوا إلى الشّيخ عليّ قاضي الدّروز، بعد أن استمالوا الحاكم المحليّ إلى غرضهم. فاستدعى الرّهبان الموارنة رئيسهم المطران عبدالله قراعلي ليدافع عن حقوقهم المشروعة.

حضر سيادة المطران عبدالله واطّلع على الأمور. ولمّا اختلى بالشّيخ عليّ الدّرزيّ، أخذ هذا يكلّمه قائلًا: "يا حضرة المطران عبدالله: إنّ الرّهبان الرّوم الأرثوذكس منتسبون لحضرة الأمير عسّاف. والأمير عسّاف ما هو صغير، ومخاصمته ما هي هيّنة، وهذه أمور لا تحرز. وأنا بشوري على الموارنة أن يتساهلوا ... فأجابه المطران عبدالله: "يا حضرة الشّيخ المكرَّم، كلامك صحيح. ولكن لا يُطلب منّا نحن الآن سوى إظهار الحقّ الصّريح. وبعد ذلك نشور على الفريقين بالتّوسّع مع بعضهم البعض". فأجابه الشّيخ عليّ قائلًا: " أنا بنظري أنّ الزّاروب هو للملكيّين، والبوّابة تحقّ لهم، والموارنة ما لهم أن يعمّروا في الزّاروب". فسأله المطران عبدالله قائلًا: بأيّة بيّنة تملّك الرّوم الزّاروب؟. فأجابه الشّيخ عليّ: أنا لا أقدر أن أعمل خلاف هذا. وترك حينئذٍ المطران وذهب إلى مقرّه، لكنّه كتب حُجّته عند الحكّام، وحكم أنّ الزّاروب هو للرّوم، وأنّ على الموارنة سدّ شبابيكهم.

أمّا المطران عبدالله فاستحضر ورقة وكتب عليها حُجّته. ثمّ تمّ إرسالها، مع حُجّة الشيخ علي، إلى مفتي بيروت السّيّد محمد علي، بواسطة رجل خالي الغرض. ولمّا اطّلع المفتي المذكور على الحُجّتين، حكمَ أنّ حُجّة الشّيخ الدّرزيّ فاسدة، لعدم مطابقتها الفقه والشّرع، وأنّ حُجّة المطران عبدالله تنقض من نفسها الحُجّة الأولى.

ثمّ أظهر الرّجل، الذي حمل الحُجّتَين، للمفتي المذكور سؤالين شرعيّين كان المطران عبدالله قد أرسلهما إليه يستفتيه فيهما: هل يجوز للمشترِع أن يحكم على زيد بغيابه؟ وهل له أن يقضي بنقطة لم يتقاضَ المتخاصمان لها أمامه؟ – فحكم المفتي ببطلان الحكمين.

وإنّنا نجد صورة هذه الفتوى محرّرة في سجلّ دير مار الياس شويّا، وعليها توقيع المطران عبدالله، ومصادقة المفتي البيروتيّ المذكور، وقاضي بيروت السّيّد شرف الدّين، وتوقيع بطرك الرّوم الكاثوليك السّيّد كيرللس طاناس.

ويذكر المؤرّخ الخوري بولس قراعلي في كتابه اللآلي (ص ٦٥٠) أنّه وجد في أرشيف بكركي، إذ كان يقوم هناك بسكريتريّة الصّرح البطريركيّ، النّسخة الأصليّة لفتوى المطران عبدالله نسيبه، وهي تتعلّق بموضوعنا هذا، وهذا نصّها الحرفيّ:

"إذا وقع شرط بين المتبايعين في أرضٍ معيّنة على أنّ الدّروب والمجالات لا تتغيّر إلّا برضى الفريقين، وأراد أحدهما أن يغيّر دربًا من دروب تلك الأراضي بغير رضى الآخر يُمنع شرعًا، والله أعلم".

(الإمضاء) الفقير إليه تعالى

+ المطران عبدالله الحلبيّ

وذكر العالِم القانونيّ الخوري يوسف زياده[١] أحكامًا كثيرة أصدرها الأحبار الموارنة، استنادًا إلى كتاب المطران عبدالله "مختصر الشّريعة"، وهي محفوظة في خزانة بكركي الخطّيّة في أبواب الوقف، والشّركة، والوصاية، والحجر، والإرث، وغير ذلك، ممّا اختلفت في نصوص الشّرع الماروني عن الشّريعة الإسلاميّة الّتي أدخلها إلى لبنان الأمير بشير الكبير، رغبةً منه في توحيد القضاء. مع أنّه ترك للقضاة النّصارى الحكم في رعاياهم المسيحيّين، رغبةً في مراعاة عاداتهم المسيحيّة وشرائعهم الخاصّة.

في الإصلاح الطقسيّ الّذي قام به المطران عبدالله

وهنا لا بدّ لنا من كلمة وجيزة على الإصلاح الطّقسيّ الّذي قام به المطران عبدالله قراعلي:

جاء في مقالة للعلّامة الخوري إبراهيم حرفوش الكُرَيْميّ في مجلّة المشرق، عدد أوّل ص ٣١٨، عن دير حراش والمطران عبدالله قراعلي وإنشائه قانونًا لراهباته يتمشّين بموجبه، ما يلي:

"إنّ المطران عبدالله قراعلي ألّف لراهبات دير حراش أناشيد وأفراميّات وميامر يرتلوهنّ في القدّاس الإلهيّ. وقد استحسن بعض أساقفة الطّائفة أن تُقال في القدّاس أيّام الآحاد والأعياد المعيّنة لها ... وكلٌّ يعلم جيّدًا طول باع هذا الأسقف التقيّ في نظم هذه التّقاريظ وأمثالها، ممّا يُشْعِر بحُسْنِ تقواه، وجودة قريحته الشّعريّة[٢]، اقتداءً بالقدّيس أفرام السّريانيّ ملفان البيعة المقدّسة، الّذي أغنى الكنيسة بمنظوماته ليعارض بها الأغاني الشعبيّة الفاسدة الّتي كانت شائعة في أيّامه، في مدائن الرّها ونصيبين.

والجدير بالذّكر، أنّنا نجد مثل هذه الأناشيد والأفراميّات محفوظة بغالبيّتها في أديار الرّهبانيّات، وفي الصّرح البطريركيّ. ففي بكركي، مثلًا، نجد ٣١ ميمرًا محفوظًا في أرشيفها. وفي دير الرهبانيّة الكبير بورمه نجد خدمة القدّاس الماروني، وهي مكتوبة في سنة ١٧٢٤، وفيها أُنشودة: "يا خبزَ الحياة وَقُوْتَ الأرواح"، وهي، كما لا يخفى، أجمل أُنشودة عن لاهوت السّيّد المسيح. ونجد، في دير حراش، حيث كان يقيم المطران عبدالله لترتيب قوانين الرّاهبات، أغلب الأناشيد الّتي نظمها المطران عبدالله ليحفظها الرّاهبات، ويرتّلنها بدل الأناشيد الشعبيّة. ونجد، في دير مار ضومط فيطرون، كتاب القدّاس الماروني لعام ١٧٩٥ الّذي يقول فيه النّاسخ هذه العبارة (ص ٣١٩) : "نكتب بعض ميامر من تأليف المرحوم المطران عبدالله قراعلي مؤسّس الرّهبنة الحلبيّة اللّبنانيّة". وفي

[١]. راجع كتاب اللآلئ، ص ٦٦٢.

[٢]. أنظر مجلّة المشرق، عدد ٧، ص ٣١٨.

نهايتها يقول: "انتهت أقوال وأناشيد وميامر المطران عبدالله قراعلي". ونجد، في دير سيّدة المعونات بجبيل، في كتاب الأفراميّات بالخطّ الكرشونيّ لعام ١٨٧٣، هذه العبارة: "أفرامات [أفراميّات] من تأليف المطران عبدالله"، وعناوينها كالآتي: "ضوء شمس لاحَ"، "با ابن داود وقَبْلَه في الوجود"، "يا مسيحَ الله كم تهتمّ ببني الإنسان"، "اليوم كملت الأقوال في ميلاد المسيح"، "قومي استنيري يا أورشليم بدخول المسيح للهيكل"، ثمّ: "هلمّوا يا بني مارون نحتفل احتفالًا عظيم بمار مارون"، ثمّ ترانيم للعذراء مريم مثل: "إهنئي يا بتول"، "سَمَوْتِ بالقبول"، "عند ربّ الأنام".

ونجد في مكتبة مطرانيّة بيروت، حيث تسقّف المطران عبدالله ولم يتسلّم مقاليد الأبرشيّة، كتاب القدّاس المطبوع سنة ١٨٠٠، وفي أوّله هذه العبارة: " هذه الأفراميّات هي من تأليف المطران عبدالله مؤسّس الرّهبانيّة الحلبيّة اللّبنانيّة ...". ومن الملفت أنّ كلّ هذه الأفراميّات والأناشيد ما تزال بغالبيّتها غير مطبوعة.

في الأختام الّتي وضعها المطران عبدالله

إنّ الأختام الّتي استعملها رؤساء الرّهبانيّة في توقيعاتهم على الأوراق الرسميّة الّتي كانوا يكتبونها هي من صنع الأبّ العامّ عبدالله قراعلي بعد سنة ١٧٠٦، الّتي فيها سمّى رهبنته الحلبيّة باسم الرّهبنة اللّبنانيّة لأنّها تأسّست في جبل لبنان كما شرحنا.

وأوّل ما صنع ختمًا بشكل مدوّر يوازي بالكبر نصف القرش، ومرسومًا في وسطه صورة القدّيس أنطونيوس الكبير، ومكتوبًا في دائرتها هذه الكلمات: "من كان فيكم كبيرًا فليكن لكم خادمًا". وكانت تُختم، بهذا الختم، كلّ أمور الرّهبانيّة الحلبيّة.

ولكن لمّا أراد الأبّ العامّ عبدالله أن يلقّب رهبنته باسم "لبنانيّة"، والرّهبان ب"لبنانيّين"، صنع حينئذٍ ختمَين جديدَين آخرَين: الأوّل: ختمًا مدوّرًا مستطيلًا قليلًا، مرسومًا في وسطه أرزة لبنان، وهو الأوّل الّذي استعمل رسم "الأرزة" شعارًا للبنان، وأصبح الآن شعار الجمهوريّة اللّبنانيّة، وفيه الكلمات المذكورة أعلاه. والثّاني: الختم الّذي كان أصغر من الإثنين المذكورَين، ومستطيلًا في دورته، ومرسومًا في وسطه أرزة صغيرة، ومكتوبًا في دائرته هذه العبارة: "خادم الرّهبان اللّبنانيّين". وهذا الختم يستعمله الرئيس العامّ للرّهبانيّة منفردًا، وكلّ رئيس عامّ يُنتخب جديدًا في المجمع العامّ.

وهكذا يكون الختم الأوّل مخصّصًا لتوقيع المجامع العامّة. والثّاني لمجامع المدبّرين العامّين. والثّالث للرّئيس العامّ بمفرده. ودام الرّؤساء العامّون يستعملون هذه الأختام حتّى سنة ١٧٢٧، الّتي فيها سافر الأبّ العامّ ميخايل إسكندر الإهدنيّ إلى رومه الخالدة لأجل تحضير القانون الرّهبانيّ، وتثبيته من قداسة البابا.

بعد ذلك التاريخ، استصوب حضرات الآباء المدبّرين العامّين أن يعملوا ختمًا جديدًا لكلّ واحد منهم يدلّ على وظيفته الخاصّة. فاستشاروا سيادة المطران عبدالله، وطلبوا منه أن يخترع لهم نوعًا من كتابة تدلّ على وظيفة كلّ واحد منهم.

فالمطران عبدالله بحكمته وفطنته، اخترع لهم أربعة أختام بشكلٍ واحد، مستطيل قليلًا، وهو أكبر من ختم الاب العامّ، ومتميّز عنه: أي أنّ ختم الاب العامّ تُوضَع الأرزة في وسطه، وأغصانها بيضاء، وأرضها سوداء، والكتابة في دائرتها. أمّا ختومات الآباء

المدبّرين فكانت الأرزة في ثلث الختم إلى آخره لناحية فوق، قصيرة وعريضة وأغصانها سوداء، وأرضها بيضاء، ومكتوب في ثلثَي الختم الباقيَين ثلاث كلمات، هي في الختم الأوّل: الإفراز، مدبِّر أوّل. وفي الختم الثاني: العدل، مدبِّر ثانٍ. وفي الثالث: النشاط مدبّر ثالث. وفي الرابع: القناعة، مدبّر رابع. وفي أسفل كلّ ختم، من هذه الأربعة، محرَّرة السنة ١٧٢٧.

وفاة المطران عبدالله

بقي المطران عبدالله مرجعًا للرهبان يستنيرون بآرائه السديدة في كلّ أمر مهمّ، سواء أمتعلّقًا كان بأمور الرهبنة الداخليّة أم بعلاقاتها مع السلطات الدينيّة والمدنيّة، إلى أن انتقل إلى جوار ربّه في السادس من كانون الثاني، منتصف الليل، سنة ١٧٤٢، في قرية زوق مصبح إذ كان زائرًا رعيّته[١]. وعندئذ نُقِلَ جسده المكرّم بزياح واحتفال عظيم، لم يصر مثله في الطائفة منذ أعوام، إلى دير سيّدة اللويزة، دير رهبانه الحلبيّين اللبنانيّين، ومركز الرئاسة العامّة الحلبيّة[٢].

جاء في اللآلي، للخوري بولس قراعلي، بهذا الخصوص ما يلي: "في سنة ١٧٤٩ حضر إلى دير سيّدة اللويزة قدس الأب العامّ مارون الدّرعونيّ، ومعه الأربعة المدبّرون وهم: القسّ يواكيم بلاديوس الحلبيّ، والقسّ إغناطيوس دياب الحلبيّ، والقسّ مرتينوس تابت، ومدبّر رابع، وفتحوا المقبرة المدفون فيها جسد السّعيد الذكر المطران عبدالله قراعلي مؤسّس الرّهبنة الحلبيّة اللّبنانيّة، وجمعوا عظامه ووضعوها داخل صندوق، وختموه من خارج بختومة المطرانين: يوحنّا إسطفان، وجرمانوس صقر الحلبيّ. وتسلّمه الرّئيس العامّ المذكور، والأربعة المدبّرون المذكورون أعلاه ليضعوه في المكان اللّائق به، أيّ في مدفن خاصّ وراء المذبح الكبير في كنيسة سيّدة اللّويزة بمصبح، تغطّيه بلاطة رخام نُقِشَ عليها ما يلي: قد وُضعت هنا، في هذه البلاطة، باعتبار حافل واحتفال شامل، هامة وعظام المتنيّح بالرّبّ المطران عبدالله قراعلي الحلبيّ، أُسقف بيروت، أبّ عامّ ومؤسّس الرّهبنة الحلبيّة اللّبنانيّة الّذي توفّيّ بحياة نقيّة، وأتعاب جزيلة سنيّة، في اليوم السّادس من شهر كانون الثّاني سنة ١٧٤٢ مسيحيّة"[٣].

---

[١] نرى هنا بعض الاختلافات في تعيين الوفاة. فحسب سجلّ الوفاة المحفوظ في دير مار يوحنّا حراش، نقرأ أنّ المطران عبدالله توفّي إلى ملاقاة ربّه في اليوم السابع من كانون الثاني، ليلة عيد مار يوحنّا شفيع الدير. وأمّا حسب ناشر كتاب "المصباح الرهبانيّ" للمطران عبدالله، حضرة الأب جورج موراني أحد رهبانه العلماء، فنقرأ أنّه توفّي إلى ربّه راضيًا مرضيًا في الخامس من كانون الثاني حسب نبذة تاريخية من قلم البطريرك بولس مسعد عثر عليها في سجلّات ديرنا سيدة اللويزة. وأمّا الخوري بولس القراعلي، نسيب المتوفّي الذي هو اقرب إليه من كلّ أحد سواه فيقول، في كتابه "اللآلي" إنّ المطران توفّي في اليوم السادس من كانون الثاني حسبما ذكرنا في المتن، وهذا هو الأرجح.

[٢] [يذكر الأب جورج ناصيف، نقلًا عن كتاب الأب لويس بليبل "تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة"، والذي ينقل بدوره عن سجلّات دير سيّدة اللويزة، أنّ المطران قراعلي دُفِن، أوّلًا، في مقبرة كنيسة سيّدة الورديّة في زوق مصبح. ورد ذلك في نصّ الأب بليبل، الذي نقله عنه الأب ناصيف، حيث يُذكَر ما حرفيّته: " جاء من دير سيّدة اللويزة الأب العامّ مارون الدرعونيّ، والآباء المدبّرون الأربعة [...]، إلى كنيسة سيّدة الورديّة، كنيسة قرية زوق مصبح. وبحضرة المطران يوحنّا إسطفان والمطران جرمانوس صقر، فتحوا المقبرة حيث دُفِن السعيد الذكر المطران عبدالله قراعلي [...] وجمعوا بقاياه الكريمة [...]. القسم الأكبر نُقِل إلى دير سيّدة اللويزة ". (ناصيف، الأب جورج ر.م.م.، **الموجَز في حياة المطران عبدالله قراعلي**، الطبعة الأولى، زوق مصبح، لبنان، منشورات الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، ٢٠٠٧، ص ٤٤)].

[٣] راجع سجل دير اللّويزة القديم، نقلًا عن **المصباح الرهبانيّ في شرح القانون اللبنانيّ**، تأليف المطران عبدالله قراعلي، قدّم له ونشره الأب جرجس موراني الحلبيّ اللبنانيّ، بيروت، مطابع سَمَيا، ١٩٥٧، ص ٢٢.

وقد وُضع من عظامه بعضٌ منها في علبتين: الواحدة في دير مار يوحنّا حراش حيث مكث المطران عبدالله سنين يرتّب قوانين الرّاهبات، ويرعاهنّ بحكمته ومحبّته وغيرته المعروفة، والثّانية في دير مار الياس الراس الّذي أسّسه مع الأبّ العامّ توما اللّبّودي كما رأيناه أعلاه. وموضوع على غلاف العلبتين المذكورتين أختام المطرانين السّالفَي الذكر[١].

وفي العام ٢٠٠٦، باشرت الرهبانيّة المارونيّة المريميّة بأعمال ترميم كنيسة دير الرئاسة العامّة، في "عهد رئاسة الأباتي سمعان أبو عبدو العامّة، ورئاسة النائب العامّ المدبّر فيليب الحاج على دير سيّدة اللويزة، [...] ففُتِح قبر المؤسّس في ٢٤ تمّوز سنة ٢٠٠٦، وحُفِظَت الرفات في إحدى غرف الدير بعد أن كشف عليها طبيب شرعيّ، وكتب تقريره"[٢].

"وفي عيد أبينا القدّيس أنطونيوس، في ١٧ كانون الثاني ٢٠٠٧، وبعد الانتهاء من أعمال الترميم، جرى احتفال مهيب ترأّسه قدس الرئيس العامّ، وحضره الآباء المدبّرون، والمطران بشارة الراعي، سليل الرهبانيّة، وأبناء الرهبانيّة كافّة، من طلّاب، ومبتدئين، ورهبان، وكهنة".

"وُضِعَت الرفات في صندوق بلّوريّ، ووُضع في داخله وعاءان زجاجيّان: أحدهما يحوي ترابًا من القبر القديم، والثاني صورًا فوتوغرافيّة للقبر القديم، وصورة البلاطة التي كانت موضوعة على القبر، مع بيان مفصَّل عن هذا الموضوع، مختومًا بختم الرئيس العامّ. وصار تطواف بالذخائر انطلاقًا من الممشى العلويّ للدير، نزولًا إلى مبنى الطالبيّة، مرورًا بالحوش الداخليّ بين القناطر؛ ثمّ دخل الجميع الكنيسة حيث وُضِعَت الرفات في المكان الجديد المُعَدّ لها، إلى يسار المذبح الكبير. كما وُضِعَ فوق القبر تمثال نصفيّ من البرونز للمؤسّس نفسه. وبعد هذا الاحتفال، مباشرة، جرت رتبة تجديد النذور بمناسبة عيد أبينا القدّيس أنطونيوس".

[١] راجع السّجلّ المذكور المحفوظ في اللّويزة.

[٢] هذه الفقرة، والفقرتان اللتان سترِدان بعدها، مأخوذة عن: ناصيف، الأب جورج ر.م.م.، **الموجز في حياة المطران عبداله قراعلي**، مرجع سابق، ص ٤٥– ٤٦.